السنة الخامسة (ربيع الأول سنة ١٣٥٨ هـ — إبريل سنة ١٩٣٩ م) العدد الرابع

صحيفة دار العلوم

م ١٩٣٤ ع ١ - ٢

تصدرها «جماعة دار العلوم»
كل ثلاثة أشهر

المدير: محمد نجيب حتيانة — رئيس التحرير: محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية
ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى
المدرس بدار العلوم
مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى	٢٠ قرشاً
خارج القطر	٦ شلنات انجليزية
ثمن العدد	٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج بجنينة لاظ

إن باحثًا مدققًا لو أراد أن يعرف أين تموتُ
اللغةُ العربيةُ وأين تحيا، لوجدها تموتُ في كل مكانٍ
وتحيا في دار العلوم"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

من شئون اللغة العربية في وزارة المعارف

في وزارة المعارف اليوم دعوة ناشطة للعناية باللغة العربية . ويعلم قراء صحيفة دار العلوم أن لجنة تألفت في وزارة المعارف في العام الماضي للنظر في وسائل النهوض باللغة العربية ، وكان من بين ما قررته من مسائل ، أن التبكير بدراسة اللغة الإنجليزية في المدارس الابتدائية قبل أن يحصل التلميذ شيئا من اللغة العربية هو عامل ذو أثر في ضعف المستوى المأمول أن تبلغه اللغة العربية، ولذلك اقترحت اللجنة أن يكون من وسائل النهوض تأخير دراسة اللغة الانجليزية إلى سن خاصة، حتى يتأتى للتلميذ أن يبلغ في دراسة اللغة العربية مبلغا ما ، قبل أن يبدأ في دراسة غيرها من اللغات .

وهو رأى له خطره وقيمته، وله براهينه وتجاربه التي يستند إليها؛ لذلك عنيت وزارة المعارف بدراسته وتأليف اللجان لبحثه، وتمحيص الرأى فيه . وكان آخر خطوة في هذا السبيل أن دعت وزارة المعارف طائفة مختارة من نظار المدارس وبعض مدرسي اللغة الانجليزية إلى اجتماع برياسة معالي الوزير ، يداولون فيه الرأي في هذا القرار ، وتبادل المجتمعون الرأى فيما اجتمعوا له، فقال منهم قائل :

إن تأخير اللغة الانجليزية إلى سن خاصة لن يجدى كثيرا على اللغة العربية، إلا إذا جدد معلمو اللغة العربية طرائقهم فى تدريس هذه اللغة.

هذا الرأى — وفيه تعريض بمدرسى اللغة العربية فى طرائقهم — قد نبه صاحب المعالى الوزير إلى ضرورة دعوة طائفة من أساتذة اللغة العربيـة إلى اجتماع آخر برياسة معاليه، ليروا رأيهم كذلك، ويناقشوا رأى غيرهم.

وهو تصرف محمود يستدعى التنويه والذكر. وكان موعد هذا الاجتماع فى مساء الخميس الماضى (٢٠ إبريل سنة ١٩٣٩) وقد دعى إليه طائفة من نظار وناظرات المدارس الثانوية والابتدائية وبعض مدرسى اللغة الانجليزية، إلى نخبة من مدرسى اللغة العربية ومفتشيها.

ويهمنا فى هذه الكلمة التى نصدر بها هذا العدد من صحيفة دار العلوم أن نلخص بعض ما دار من الحديث فى هذا الاجتماع الذى لم يؤت ثمرته بعد:

بدأ معالى وزير المعارف حديثه إلى المجتمعين قائلا:

إن الاجتماع الذى دعوت إليه منذ أيام لبحث دراسة اللغة الأجنبيـة فى المدارس الابتدائية قد أثار مسائل تتصل بدراسة اللغة العربية، فقد رأى بعض المجتمعين - وأراه معنا فى هذه الليلة - أن فى تأخير دراسة اللغة الإنجليزية إلى مابعد العاشرة حرمانا لتلاميذ الفرق الأولى فى المدارس الابتدائية من متاع ولذة، يجدونهما فى الإنجليزية ولا يجدون فى اللغة العربية تعويضا منهما. إن ضعف التلاميذ فى اللغة العربية لا يرجع إلى مزاحمة اللغة الأجنبية لها، وإنما يرجع إلى طريقة تدريس اللغة العربية نفسها. هذا ما قاله بعض المجتمعين، وإذ كان من قصدى دائما أن أعمل على تحرى صواب الرأى بالمشاورة، فقد رأيت أن أجتمع بكم الليلة لنتحدث ونتبادل الرأى فى لغة البلاد، وطرائق تعليمها، فهى مقوم من مقومات الحياة الوطنية، وهى أقوى عماد فى بناء القومية، وكل بحث فيها هو خدمة وطنية كبرى.

قال بعض المجتمعين من نظار المدارس الثانوية : الحق أنني لم أقصد بما قلت في الاجتماع الماضي أن أحط من قيمة المجهود الذي يبذله مدرسو اللغة العربية،فهذا شيء لا أعنيه ولا ينبغي لي ، ولكني أردت أن أسأل : لماذا يجد التلميذ في دراسة اللغة الإنجليزية من اللذة والمتاع مالا يجد مثله في دراسة اللغة العربية ؟ ولماذا يجد في اللغة الإنجليزية من التشويق والجاذبية مالا يجد في العربية ؟ أيكون سبب هذا هو الكتب ، أو طريقة التدريس ، أوطبيعة اللغة، أو عدم تجانس القوى بين تلاميذ السنة الأولى في المدارس الابتدائية ؟

هذه أسئلة عنيت بالبحث عن جوابها في هذه الفترة بين الاجتماعين، فعرفت أن من أسباب ذلك ، عدم تجانس القوى بين التلاميذ في الفرقة الواحدة ، فالتلاميذ الذين يقبلون في السنة الأولى بالمدارس الابتدائية أنواع ثلاثة : نوع أتم دراسته في رياض الأطفال ، ونوع أتى من المدارس الأولية، ونوع ثالث أدى امتحان القبول في المواد التي حددها المنهج ، فنجح في الامتحان . هذه الأنواع الثلاثة لا تكون وحدة متماثلة في فرقة واحدة ، ومن هنا كان المعلم في طريق بين طريقين : إما أن يهمل التلميذ الضعيف ليمضي بالتلميذ القوى على منهاجه ، وإما أن يوجه عنايته إلى الضعيف فلا يجد التلميذ القوى أمامه عملا ، فيركبه الكسل ويتعود الاهمال .

ثم هذه الكتب العربية التي تصرف للتلاميذ في مختلف المواد بلغة لا يستطيعون أن يقرءوها أو يفهموها، أو يجدوا فيها ما يشوقهم إلى القراءة والمطالعة . هل من سبيل إلى إصلاحها ؟ لماذا لا تكون كل الكتب الدراسية في الفرق الأولى على أسلوب القصة حتى يحبها التلاميذ ويقبلوا عليها ؟

لقد رأيت يوما بين يدي ولدي قصة يقرؤها، فما رأيته مرة يقبل على المطالعة بشوق ولذة كما رأيته يومئذ ، وهذه تجربة يمكنكم أن تتحققوا منها في بنيكم وبناتكم ، فلماذا لا تكون كل الكتب التي تصرف لتلاميذ الفرق الأولى على هذا الأسلوب ؟

إننى أعجز أحيانا عن فهم عبارات وأساليب فى كتب الجغرافيا والحساب وغيرهما مما يصرف لتلاميذ المدارس الابتدائية ، فماذا يصنع التلميذ نفسه ؟

وانتهى القائل من حديثه ، فأخذ المجتمعون يداولون الرأى فيما يمكن اتخاذه من الوسائل لتحقيق التجانس بين قوى التلاميذ الذين يقبلون فى المدارس الابتدائية ، وعرضوا للنظر فى برامج رياض الأطفال ، والمدارس الأولية ، وامتحان القبول .

وجىء لمعالى الوزير بنماذج من الكتب المقررة على تلاميذ السنة الأولى فى مختلف مواد الدراسة ، فأشار إليها معالى الوزير متسائلا : كيف تصرف هذه الكتب لتلميذ فى السنة الأولى ؟

قال قائل : هذه الكتب ليست من عملنا .

فأجاب معالى الوزير : لست أريد أن أنسب العيب إلى أحد ، ولكنى أسأل : ما فائدة التلميذ من حمل هذا المقدار من الكتب ؟ قال القائل : فائدة ذلك ونتيجته أن يعرف التلميذ من أول يوم يدخل فيه المدرسة أن الكتب لا فائدة لها ؛ لأنه لا يتعلم منها ، ثم تكون نتيجة ذلك ألا يتخذ الكتب إلا كما يتخذ أداة من أدوات الزينة ، ومن هنا كانت الشكوى العامة من عدم إقبال متعلمينا على القراءة فى المدرسة وبعد المدرسة . ولو أن التلميذ وجد فى أول كتاب يأخذه من المدرسة ما يحمله بالتشويق والحيلة على القراءة ، لتعود المطالعة ، ووجد لذته .

واتفق المجتمعون على أنه يجب أن تكون الكتب من السهولة بحيث تحمل التلميذ على القراءة وحده ، وأن يراعى فيها أن تكون جميعها على أسلوب قصصى ما أمكن ذلك .

ثم أذن لأساتذة اللغة الإنجليزية فى إبداء آرائهم ، فتحدث اثنان من نظار المدارس الابتدائية ، فاتفقا على الرأى بأن اعتبار اللغة العربية لغتنا ، والإنحاء

على مدرسى اللغة العربية بسبب ذلك ، هو خطأ ، وردا أسباب ما يريان من ضعف فى اللغة العربية إلى عوامل عدة : منها مزاحمة اللغتين العامية والإنجليزية، ومنها الكتب ، ومنها المناهج ، ومنها البيئة العامة التى يعيش فيها التلاميذ المصريون ، ثم قررا رأيهما فى وجوب تأخير دراسة اللغة الانجليزية إلى السنة الثالثة الابتدائية .

وتناول البحث فى أثناء ذلك موضوع النشاط المدرسى وأثره فى التعليم ، وعدد الكتب التى توضع فى أيدى التلاميذ ، ومسألة اتصال اللغة بالحياة العامة ، وتقريب الحضارة القديمة ومظاهر الحياة الحديثة من عقول التلاميذ ، وإيثار الألفاظ الصحيحة السهلة على غيرها . وهنا أبدى معالى وزير المعارف رأيه بأن يبدأ بتعليم التلاميذ اللغة الصحيحة السهلة ، وألا يلزموا ضبط أواخر الكلمات، إلا بعد تحصيل قدر كبير من اللغة .

وتحدث بعد ذلك أستاذ من أساتذة التربية فأفاض فى حديثه عن جهود مدرسى اللغة العربية ، وعن العوائق التى تعترض سبيلهم ، ثم عن تجارب يعالجها هو فى تدريس اللغة العربية ، ويؤمل أن تأتى قريبا بأطيب الثمرات . وتحدث بعد ذلك عن تقسيم اللغة العربية إلى فروع من : قواعد ، إلى مطالعة ، إلى إنشاء ، يقترحا العدول عن هذا التقسيم ، وتدريس اللغة العربية كلها على أسلوب واحد، مبدأ بالمطالعة فى كتب قصصية سهلة مشوقة ، يتعلم التلميذ منها اللغة بكل فروعها ، من غير تقسيم قد يحمل بعض التلاميذ على اعتبار كل فرع منها مادة واحدة . ثم قال : إن مدرسى اللغة الانجليزية تختلف حالهم عن مدرسى اللغة العربية ، فهم يدرسون لغة قد تعب أهلها وتفننوا فى طرائق تعليمها ، وما يزال كل يوم يجد جديد فى هذه الطرق ، فليس عليهم من جهد إلا أن يسترشدوا بما وضع أهل هذه اللغة من طرق ، ويستخدموا ماوضعوا من كتب ، أما اللغة العربية فما يزال أهلها يجربون تجاربهم ، معتمدين على أنفسهم ، لا تأتيهم المعونة من قريب ولا من بعيد .

ثم اقترح أن يجمع عدد من المبرزين فى اللغات لوضع كتب وافية بالغرض.

ثم تبادل الكلام بعض أساتذة اللغة العربية عن جهودهم، منكرين دعوى ضعف اللغة العربية ، مستشهدين بنتائج الامتحانات فى هذه المادة بالقياس إلى غيرها من مواد الدراسة ، معلنين استياءهم من بعض ما ينسب إليهم من قول مردود ، وأفاضوا فى الحديث عما يلقون من متاعب العمل، وقلة التقدير ، وإلحاح المدعين عليهم بالأباطيل ، فقد خلقوا من ضعف التلاميذ قوة ، ومن ذوات الخفر والحياة شخصا يكتب ويخطب ، ويحاضر ويناظر ، وإن اللغة العربية قوية بنفسها وبالقائمين عليها .

ورد معالى الوزير قائلا :

يخطىء من يظن منكم أنى دعوتكم هنا لأقول: إن منكم من يقصر فى واجبه. إننا جميعا مجندون فى العهد الجديد لأداء رسالة فى الحياة أعظم خطرا من رسالة سابقينا . ولما كانت اللغة العربية هى أساس الحياة العربية ، وهى صلة مصر بالبلاد الشرقية ، وعليها يقوم الحظ الأكبر من اضطلاعها بواجباتها ، فإنى أتجه إليها وإلى معلميها دائما . ولا يعنى بحثنا فى إنهاض اللغه العربية أن فى معلميها نقصا ، فالنقص والكمال قسمة بيننا جميعا ، وإنما يعنى أننا نريد أن ننتقل بالحسن إلى الأحسن ، شأن الحياة فى طريقة تطورها ، وأن نهيء الجيل الجديد تهيئة تجعله أعظم قدرة منا وممن سبقونا على أداء رسالته فى الحياة .

ثم انتهى الاجتماع على أن يلتقى أعضاء هذه اللجنة فى جلسة تالية تحدد الوزارة موعدها، لينظر الأعضاء فى أمثل الطرق لتدريس اللغة العربية فى جميع مراحلها : من رياض الأطفال إلى الجامعة . فإذا انتهت هذه اللجنة إلى رأى فيما اجتمعت له عرضت مقترحاتها على معالى الوزير ليبحثها فى اجتماع عام ، يضم وزراء المعارف السابقين ، ورجال الجامعة ، وطائفة من المربين ، للبلوغ بهذه المقترحات إلى المرتبة التى تجعلها أساسا صالحا للسياسة الجديدة التى رسمها معاليه لتدريس اللغة العربية ؟

اختــــزال الشكل

اقتراح للأستاذ الشيخ محمد على الدسوقى

الباحث اللغوى المعروف

«عرفنا الشيخ محمد على الدسوقى محققا لغويا ، له اتصال وثيق بالمراجع التى يحتج بها ، وقد أكسبته قراءته كثيرا من الآراء القوية فى إصلاح اللغة وتيسير سبلها للناشئين ، وقد عالج فى هذا البحث بعض المشكلات ، ولذلك أحببنا أن ننشره بين أساتذة اللغة العربية ليروا رأيهم فيه ، والأستاذ يرحب بكل مايبديه الزملاء الأفاضل من الملاحظات فى هذا الموضوع الجليل الشأن » التحرير

اختــــزال الشكل

كانت الحروف العربية فى مبدأ أمرها منقوطة وليست مشكولة ، ثم أهمل النقط فصارت غير منقوطة ولا مشكولة . وعندنا على ذلك آثار مادية منها كتاب النبي ﷺ إلى المقوقس وغيره من الآثار .

وكانت العرب تقرأ الخط العربى بالسليقة ؛ لأن اللغة العربية كانت فى عنفوان شبابها ، لم يتطرق إليها اللحن والتحريف ، فكان العربى ينطق بالكلمات صحيحة مضبوطة ، يستوى فى ذلك الصغير والكبير والذكر والأنثى . فلما فشا التحريف بسبب اختلاط العرب بالعجم بعد الفتوحات الإسلامية وضع الشكل . ثم كثر التحريف وفقدت ملكة الإعراب فى المتعربين فوضع الإعجام وهو النقط فى زمن عبد الملك بن مروان على يد الحجاج بن يوسف كما سيجىء تفصيله .

أما السبب فى وضع النقط فهو كثرة التشابه بين الحروف العربيـة من أصل الوضع : ففيها خمسة أحرف متقاربة الوضع لا يتميز بعضها عن بعض فى أول الكلام أو وسطه أو آخره إلا بالنقط وهى (ب ت ث ن ى) ماعدا اليـاء، فإنها لا تنقط فى آخر الكلمة وفى حالة الأفراد [1]، وفيها ثلاثة متحدة الوضع لا تمييز بينها فى أول الـكلام أو وسطه أو آخره أو فى الأفراد إلا بالنقط،وهى (ج ح خ) وما بعدها من الحروف كل حرفين على وضع واحد ، لا يتميز أحدهما عن الآخر إلا بالنقط ، ما عدا الـكاف واللام والميم والهاء والواو . وعلى ذلك تـكون الحروف المهملة ١٣ حرفا وهى (ا ح د ر س ص ط ع ك ل م ه و) والمعجمة ١٤ (ب ت ث ج خ ذ ز ش ض ظ غ ف ق ن) أما الياء فإذا روعيت حالة الإفراد حسبت مهملة ، وإذا روعيت حالة الاتصال فى الأول والوسط عدت معجمة،فعلى الحالة الأولى تكون الحروف ٢٨ منها ١٤ مهملة و١٤ معجمة كمنازل القمر منها ١٤ ظاهرة فوق الأفق و١٤ مختفية تحته . وعلى الثانية تـكون المهملة ١٣ والمعجمة ١٥ .

وأما سبب وضع الشكل ففشو اللحن والتحريف فى الكلمات العربية كما علمت . فوضع الشكل أولا بالنقط بلون يخالف لون المداد الذى كتب به الخط منقوطاً ، وفى المـكتبة الملـكية مصاحف مشكولة بنقط حمراء ، ثم وضع ثانياً بالعلامات المعروفة الآن كما سيأتى ذلك مفصلا .

أول من وضع الخط العربى

قال ابن عباس :

هم ثلاثة من طيء من قبيلة بولان التى سكنت الأنبار وهم : مُرامر بن مُـرة،وأسلم بن سدرة وعامر بن جَـدَرة:فالأول وضع الحروف ، والثانى فصل ووصل ، والثـالث وضع الإعجام (النقط) وسمَّـوْا هذا الخط بالجزم لأنه مقتطع من الخط الحميرى .

(١) أهل الشام ينقطونها فى جميع أحوالها .

وقال أستاذنا «حفنى بك ناصف» فى كتاب تاريخ الأدب : «وصل الخط الحيرى الأنبارى إلى الإسلام على شكلين : التقوير والبسط ، فالخط المقور (ويسمى باللين والنسخى) هو ما كانت عراقاته منخسفة إلى أسفل،وهو الذى كثر استعماله وعم تداوله فى المراسلات والكتابات المعتادة . والخط المبسوط (ويسمى باليابس) ما كانت عراقاته مبسوطة ، ولا يستعمل عادة إلا فى النقش على المحاريب ، وأبواب المساجد،وجدران المبانى الكبيرة، وفى كتابة المصاحف الكبيرة ، وما يقصد به الزينة والزخرف ، وغلب عليه إطلاق لفظ كوفى بعد أن بنيت الكوفة بأمر عمر بن الخطاب على مقربة من موضع الحيرة والأنبار . وأجمع المؤرخون على أن أول من حمل الكتابة إلى مكة حرب بن أمية بن عبد شمس،تعلمها من عدة أشخاص منهم بشر بن عبد الملك،وقد حضر معه إلى مكة وتزوج ابنته ، وعلم جماعة من أهل مكة ثم ارتحل.

وكان كتاب النبى ﷺ يكتبون بالخط المقور وهو النسخى ، وهم ثلاثة وأربعون وأشهرهم : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى . وكان ألزمهم للنبى ﷺ وأكثرهم كتابة له زيد بن ثابت ومعاوية بن أبى سفيان . وبهذا الخط عينه كتب زيد بن ثابت صحف القرآن فى خلافة أبى بكر بأمره رضى الله عنه بإشارة عمر بن الخطاب .

والكتب التى أرسلها النبى ﷺ للملوك كلها بهذا الخط ، ومنها : كتابه لهرقل قيصر الروم،وقد أرسله مع دحية الكلبى ، وكتابة لأنو شروان كسرى فارس،وقد أرسله مع عبد الله بن حُذافة السَّهْمى ، وكتابه لأصحمة نجاشى الحبشة ، وقد أرسله مع عمر بن أمية الضَّرى،وكتابه لمينا بن جُريج مقوقس مصر،وقد أرسله مع حاطب بن بَلتْعة ، وكتابه للمنذر بن ساوى ، وقدأرسله مع العلاء بن الحضرمى . وكتابه لجَيْفَر وعبد ملكى عمان ، وقد أرسله مع عمرو بن العاص ، وكتابه لهُود بن على صاحب اليمامة ، وقد أرسله مع سليط

ابن عمر العامرى . وكتابه للحارث بن شمر الغسانى ملك البلقاء وقدأرسله مع شجاع بن وهب ، وكتابه ليوحنا بن رُؤبة صاحب أيلة،وسلمه له فى تَبُوك.

وقد عثرالباحثون على الكتابين المرسلين إلى المقوقس والمنذر بن ساوى وأخذوا صورتهما بالتصوير الشمسى ، وطبعوهما .

أما الكتابان نفسهما فمحفوظان الأول فى الآستانة والثانى فى فينا .

الشكل بطريق النقط

قال أستاذنا رحمه الله بعد أن ذكر اشتغال أبى الأسود الدؤلى بوضع النحو بأمر الإمام على « واشتهر بعد ذلك أبو الأسود بعلم العربية فاختلف الناس إليه للأخذ عنه » ثم ذكر أسماء جماعة برعوا فى النحو وقراءة القرآن وفنون الأدب حتى صاروا أئمة الأنام وهداة الإسلام .

غير أن اشتغال الناس بالنحو لم يصد ذلك التيار الجارف من فساد الألسنة بالاختلاط ،فطلب زياد بن سُمَيَّة — وكان واليا على البصرة — من أبى الأسود أن يبتكر طريقة لإصلاح الألسنة وقال له : إن هذه الحمراء (يريد العجم) قد كثرت وأفسدت من ألسنة العرب،فلو وضعت شيئاً يصلح الناس به كلامهم،ويعربون به كتاب الله ، فأبى أبو الأسود . . لأنه من جهة كان ضنينا بما تلقاه عن على كرم الله وجهه ، ومن جهة أخرى كان قد ضعف نشاطه بعزله عن ولاية البصرة بعد قتل على وإفضاء الخلافة إلى الأمويين أعدائه السياسيين،فدبر زياد حيلة — وكان من دهاة العرب — فقال لرجل من أتباعه: «اقعد فى طريق أبى الأسود واقرأ شيئاً من القرآن وتعمد اللحن »

فذهب الرجل وقعد فى طريق أبى الأسود فلما قاربه رفع الرجل صوته بالقراءة كأنه لا يقصد إسماع أبى الأسود ، وقال (إن الله برىء من المشركين ورسولِه) وكسر اللام،فأعظم ذلك أبو الأسود ، وقال :« عز وجه الله أن يبرأ من رسوله» ثم رجع من فوره إلى زياد وقال له:قد أجبتك إلى ما سألت ، ورأيت

أن أبدأ بإعراب القرآن ، فابغنى كاتبا فبعث إليه ثلاثين كاتبا،فاختار منهم واحدا من عبد القيس . وقال له : خذ المصحف وصبغا يخالف لون المداد ، فإذا رأيتنى فتحت شفتى بالحرف فانقط واحدة فوقه ، وإذا كسرتهما فانقط واحدة أسفله، وإذا ضممتهما فاجعل النقطة بين يدى الحرف ، فإن تبعت شيئاً من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين . وأخذ يقرأ القرآن بالتوالى ، والكاتب يضع النقط ، وكلما أتم الكاتب صحيفة أعاد أبو الأسود نظره عليها . واستمر على ذلك حتى أعرب المصحف كله . فأخذ الناس هذه الطريقة عنه وشكلوا بها الحروف ، فكانوا يضعون للدلالة على فتحة الحرف نقطة فوقه ، وعلى كسرته نقطة من أسفله ، وعلى ضمته نقطة على شماله ، والحرف الساكن لا يضعون عليه شيئاً . وإذا كان الحرف منونا يضعون نقطتين فوقه أو أسفله ، أو عن شماله واحدة دلالة على الحركة والأخرى دلالة على التنوين ، فإذا كان بعد التنوين حرف من أحرف الحلق [1] وضعوهما إحداهما فوق الأخرى، علامة على أن النون مظهرة، وإلا وضعوهما إحداهما بجانب الأخرى علامة على أن النون مدغمة أو خفية.

وكانوا يسمون هذه النقطة شكلا؛لأنها تدل على شكل الحرف وصورته، ولولا ذلك لكان الحرف مادة قابلة لأن تتشكل بأى شكل.

وقد تفنن الناس بعد أبى الأسود فى شكل النقطة ، فمنهم من جعلها مربعة، ومنهم من جعلها مدورة مسدودة الوسط ، ومنهم من جعلها مدورة خالية .

ثم قال: « وجرى أهل الأندلس على استعمال أربعة ألوان فى المصاحف: السواد للحرف ، والحمرة للشكل بطريق النقط ، والصفرة للهمزات ، والخضرة لألفات الوصل».

ولم تشتهر طريقة أبى الأسود إلا فى المصاحف حرصا على إعراب القرآن.

---

(١) الأحرف التى مخرجها من الحلق ستة مجموعة فى قول بعضهم :

همز وهاء ثم عين حاء   مهملتان ثم غين خاء

وأما الكتب العادية فكان شكلها نادرا ؛ لأن المكتوب إليهم كانوا يعدون ذلك تجهيلا لهم .

قال بعضهم: «شكل الكتاب سوء ظن بالمكتوب إليه» ومن الناس من كان ينفر من الشكل بهذه الطريقة لقبح منظره . وقد عرض مرة على عبد الله بن طاهر كتاب مشكول، وكان خطه جميلا، فقال . . ما أحسن هذا الخط لولا كثرة شُونيزه. والشُّونيز الحبة السوداء . شبه ابن طاهر النقط بالشُّونيز كأن الكاتب بعد أن خط كتابه نثر عليه جانبا من الشونيز .

الإعجام أى النقط

المراد بالإعجام تمييز الحروف المتشابهة بوضع نقط لمنع اللبس ، فالهمزة فى الإعجام للسلب أى إزالة العجمة كما فى قولك : شكوت إليه فأشكانى، أى أزال شكواى، ثم قال أستاذنا حفنى بك ما ملخصه : يظهر أن الإعجام موضوع قبل الإسلام، ولكن تساهل الكتاب فى أمره شيئاً فشيئاً حتى تنوسى ، ولم يبق منه إلا النادر إلى أن جاء زمن عبد الملك فحتم على كتاب دولته رعايته . وبيان ذلك أن الناس مكثوا يقرءون فى مصاحف عثمان نيفا وأربعين سنة ، ثم كثر التصحيف فى العراق، ففزع الحجاج الى كُتابه فى زمن عبد الملك، وسألهم أن يضعوا علامات لتمييز الحروف المتشابهة . ودعا نصر بن عاصم الليثى، ويحيى بن يَعْمُر العَدوانى (تلميذى أبى الأسود لهذا الأمر) فبعد البحث والتروى قرر نصر ويحيى ، وكانا من التقوى بحيث لا يُتهمان فى دينهما — إدخال الإصلاح الثانى، وهو أن توضع النقط أفرادا وأزواجا لتمييز الأحرف المتشابهة ... وقد ذهب المغاربة إلى نقط الفاء بواحدة من أسفل والقاف بواحدة من أعلى خلافا للمشارقة الذين نقطوا الفاء بواحدة من أعلى ، ومنشأ الخلاف بين أهل المشرق والمغرب اختلاف النقل ، فأهل المشرق نقلوا نقط الفاء من أعلى ، وأهل المغرب نقلوا نقطها من أسفل ، ولما كان المشارقة مخالطين لمن وضعوا النقط رجحنا رأيهم ،

وأشرنا على المغاربة أن يتبعوا طريقتهم توحيدا للكتابة فى جميع الأقطار الإسلامية . ولما كانت الياء المتطرفة لاتشتبه بشىء وجب إهمالها على كل حال، سواء كان أصلها الألف كالفتى أو ياء حقيقة كالقاضى .

الشكل بطريقة الحروف الصغيرة

تبع الناس فى زمن دولة بنى أمية الإصلاح الأول الذى أدخله أبو الأسود والإصلاح الثانى الذى أدخله نصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر.

وفى زمن دولة بنى العباس مال الناس إلى أن يجعلوا الشكل بنفس مداد الكتابة تسهيلا للأمر،فوقف فى سبيلهم اختلاط الشكل بالنقط؛لأن كلا منهما بالنقط،ورأوا أنه لابد من إصلاح ثالث:إما بتغيير طريقة الشكل،وإما بتغيير طريقة الاعجام،وقد عنى الخليل بن أحمد بهذا الأمر،وكان أوسع الناس علما بالعربية،فوضع طريقة أخرى للشكل وهى التى عليها الناس الآن ، بأن جعل للفتحة ألفا صغيرة مائلة فوق الحرف،وللكسرة رأس ياء صغيرة تحته ، وللضمة واوا صغيرة فوقه ، فإذا كان الحرف المحرك منونا تكرر الحرف الصغير فكتب مرتين فوق الحرف أو تحته كما هو معلوم من أن الفتحة جزء من الألف ، والكسرة جزء من الياء ،والضمة جزء من الواو . ووضع للسكون الشديد وهو ما يصاحب الإدغام رأس شين بغير نقط هكذا ـس ،وللسكون الخفيف وهو مالا إدغام فيه رأس خاء بلا نقط هكذا ح ووضع للهمزة رأس عين هكذا ع لقرب الهمزة من العين فى المخرج ، ولألف الوصل رأس صاد هكذا ص توضع فوق ألف الوصل دائما مهما كانت الحركة قبلها ، وللمد الواجب ميما صغيرة مع جزء من الدال هكذا ~ فصار ما وضعه الخليل ثمانى علامات .

الفتحة والضمة والكسرة والسكون والشدة والمدة والوصلة والهمزة هكذا:

ـَ ـُ ـِ ـْ ـّ ـٓ ـٱ ـٔ

وبهذه الطريقة أمكن أن يجمع الكاتب بين الكتابة والإعجام والشكل بلون

واحد ، وقد تفنن أتباع الخليل بحذف جزء من رأس الياء الدالة على الكسرة، وحذف رأس الميم من علامة المد . وأجازوا فى الضمتين أن تكتبا على الأصل هكذا ُ ُ أو تزاد الثانية على الأولى هكذا ٌ أو توضع الثانية فوق الأولى إلى الخلف كالفاصلة هكذا ٌ وأن توضع كسرة الحرف المشدد تحت الشدة فوق الحرف أو تبقى تحته . وفى الهمزة المكسورة أن توضع كسرتها تحت الألف أو توضع الهمزة من فوق ، والكسرة من تحت .

اختزال النقط

لما كان النقط من الكثرة بالمقدار الذى علمته بسبب تشابه الحروف من أصل الوضع فكر علماء الخط فى اختزاله . وقد استعملوا هذا الاختزال فى نوعين من أنواع الخطوط : وهما خط الرقعة ، وخط التعليق المسمى بالخط الديوانى ، أما باقى الخطوط المشهورة . وهى الثلث والنسخ والفارسى فلم يحصل فى نقطها اختزال. واختزال النقط على نوعين :

١ — الأول الاستغناء بسن مائلة إلى الخارج أو على شكل نقطة متصلة فى الداخل، فى آخر الحرف - عن النقط، وذلك فى ثلاثة أحرف وهى الشين والقاف والنون . أما الياء المتطرفة فلا تنقط ولا يوضع بها سن .

٢ — الثانى مزج نقطتى التاء والقاف فى أول الكلمة ووسطها وآخرها، والياء فى الأول والوسط — على شكل خط قصير ومزج النقط الثلاث التى على الثاء والشين بهيئة رقم ٨ **هكذا شئ، رثى، الفتى** فخفف هذا الاختزال من عناء النقط فى أكثر الخطوط استعمالا باليد، وهما خط الرقعة والديوانى ، وقد حذفت أسنان السين والشين من هذين الخطين تسهيلا للكُتَّاب ، ولكن الآن قامت الآلة الكاتبة مقام اليد ، وهى خاصة بخط النسخ الذى لم يمسسه اختزال النقط . فحبذا لو عنى بعض المصريين باختراع آلة كاتبة لخط الرقعة لما فيه من مزية اختزال النقط .

مقترحات حذف الشكل

الحروف العربية عند التركيب خالية من علامات الحركات والسكون فلذلك كانت أخصر اللغات وضعا . وقد وضع الشكل فوق الحروف ليقوم مقام الحروف الصامتة فى اللغات الأوربية فلفظ مُحَمَّدٌ مثلا أربعة أحرف يوضع فوقها من علامات الشكل خمس فمجموع الحروف مع الشكل تسع . فإذا كتب بالحروف الفرنجية تكون من ثمانية أحرف ولفظ محمد بالتنوين مكون من خمسة أحرف وضع عليها خمس من علامات الشكل . فالحروف مع الشكل عشرة . فإذا كتب بالفرنجية تكون من عشرة أحرف .

وحرف العطف المفرد نحو الواو يقابله من الفرنسية حرفان et . وثلاثة فى الانجليزية and فإذا كتبنا محمود ومحمد بالعربية وقابلناهما بالإفرنجية ظهر الاختصار فى العربية من المقارنة بين موضعى كل منهما هكذا :

مَحْمُودٌ وَمُحَمَّدٌ Mahmoudonn et Mohammed

فيظهر من هذين الوضعين أن الكلمات بالحروف الفرنجية تشغل من الورق نحو أربعة أمثال الكلمات العربية ، فضلا عن توفير الزمن، فإن الكاتب العربى يكتب فى أقل من ربع الزمن الذى يشغله الإفرنجى فى ترجمة القطعة بعينها على فرض أن الكاتبين فى درجة واحدة من السرعة ، لكن هذا الاختصار فى اللغة العربية تقابله صعوبة فى التعليم والنطق بسبب كثرة الشكل، وعدم اتساع المسافة التى فوق الحرف لوضعه ، فيرتبك القارىء فى النطق بسبب كثرة وقوع بعض الشكل فى غير موضعه من الحرف .

لهذا وجب علينا أن نقلل منه ما أمكن ليوجد متسع فوق الحروف لما بقى منه مع المحافظة على ما اختصت به الحروف العربية من الاختصار الذى لا يدانيه فيه لغة من اللغات الأوربية .

ولما كان الشكل من الصعوبة بالقدر الذى علمته استغنت عنه الكتب

والرسائل والجرائد والمجلات والإعلانات وغيرها فصارت القراءة فيها مدعاة للحن والتغيير والفوضى فى النطق عند غير البصراء بالنحو واللغة وقليل ماهم . وأظنكم تعلمون حكاية ذلك العمدة الذى قرأ فى جريدة المؤيد ... سمو الخديوى فى عابدين . فقال ياخبر أسود (سَمُّ الخديوى فى عابدين) .

وكان أستاذنا الشيخ أحمد هرون يدرس النحو والصرف فى مدرسة الهندسة، فأمر الطلبة أن يستذكروا دروسهم فى بعض الحصص . فجاءه طالب يقال له توفيق ومعه الكتاب فقال له مامعنى (يُدَوْدِم) ياأستاذ، فقال :لامعنى لها . أرنيها فأراه إياها ، فإذا هى يَدِوَدَم . وقد سمعت أن رجلا من أعيان البلاد أتى إلى البابلى فى منزله فرأى مكتوبا على باب الغرفة . . المؤمن كَيِّس فطن . فقرأها . المؤمن كِيسُ قُطْن . ثم سأل البابلى مامعنى المؤمن كيس قطن؟ فأراد البابلى ألا يكسفه فقال : يعنى قلبه أبيض .

وحدث أيام كنا بالأزهر أن بعض العلماء كان يطالع الدرس ليلا ليقرأه على الطلبة نهارا،فلما وصل الى قول الشاعر:

فلولا المزعجات من الليالى لما ترك القطاطيبَ المنام

قرأ القطاطيب بالرفع والمنام بالنصب لأن البيت غير مشكول . وظن أن القطاطيب نوع من الطير فأمسى ليله يبحث عن معنى القطاطيب فى كتب اللغة فلم يجد لها أثرا ، فحضر إلى الدروس فى الصباح كاسف البال يخشى أن يسأله بعض الطلبة عن معنى القطاطيب،فلما وصل إلى البيت أمر بعض الطلبة أن يقرأه فقرأه صحيحا فقال له:أحسنت .

وأقرب حادثة حصلت أمامى أن بعض الأفندية جاءنا بدائرة معارف فريد وجدى وقال:إن فيها عبارة عن تاريخ العرب لم أفهمها . فقلنا له : اقرأها .فقال: أصل العرب من (طَسِمْ وَجَدِّيس) يريد طَسم وَجَدِيس) . فأخذت منه الكتاب وأطبقته.وقلت له: اقرأ فى كتاب مشكول. فياأسفا على مافرطنا فى جنب اللغة !

وهذا فيما أظن ماحدا بالترك والعجم لنبذ الحروف العربية، والاستعاضة عنها بالحروف الفرنجية مع مافيها من التطويل، وشغل الكثير من المسافات، وضياع الكثير من الزمن.

لهذا قامت ضجة من نحو أربعين سنة لإصلاح الحروف العربية والاستغناء عن الشكل، فاقترح بعضهم أن تكتب الحروف مفردة ويوضع الشكل فى صلب الكلم كالحروف الفرنجية فيكتب محمد مثلا (م و ح ا م م ا د)وقد جرى على ذلك أنور باشا فى تعليم الجند أيام الحرب الطرابلسية لتتعلم العسكر القراءة والكتابة فى أقرب وقت، ضاربا صفحا عما ينشأ عن ذلك من التطويل فى الأسطر، وعدم التمييز بين الواو الأصلية والضمة، والياء الأصلية والكسرة، والألف الأصلية والفتحة، مع الفرق العظيم فى النطق بين الحرف والحركات، فضلا عن انقطاع الصلة بين الكتب العربية وبين المتعلمين بهذه الطريقة حيث لا يمكنهم أن يقرءوا الحروف المشتبكة بأى حال من الأحوال.

لذلك دفن هذا الاقتراح حيث ولد ولم تقم له بعد ذلك قائمة، وقد حاول بعضهم أن يميز بين الحروف الأصلية والحركات فوضع الحركات بأحرف صغيرة بعد الحروف الأصلية فيكتب على مثلا (ع ا ل ى ى ى و ن) فرد عليهم أولو الرأى بأن هذا هو الشكل بعينه فى صورة مكبرة، وأوضاع متباعدة، فإذا فعلنا ذلك رجعنا من حيث بدأنا بدون أن نشعر، وخسرنا ضيق المسافات، واختصار الوضع فى الشكل (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فى الأَرْضِ)

اختزال الشكل

لما كان الشكل عقبة كئودا فى سبيل المتعلمين، ولا سيما المستشرقين، لأنه يفوق الحروف عدا، كان لزاما علينا أن نبحث عن طريقة لاختزاله أو الاستغناء عنه إن أمكن، ولم أكن أول المقترحين لذلك كما علمت آنفا، بل عالجه كثير

من قبل،فذهب مجهودهم أدراج الرياح، ولم يكلل سعيهم بالنجاح لأنهم سلكوا طريقا وعرة فطرحت اقتراحاتهم فى زوايا الإهمال .

بيان أن الشكل يفوق الحروف عدًّا

كل حرف لابد له من علامة وبعض الحروف يحمل على كاهله علامتين أو ثلاثا أو أربعا كالشدّة والفتحة،أو الشدة والضمتين،أو الهمزة والشدة والضمتين، أو الفتحتين أو الكسرتين أو غير ذلك من الشدة والوصلة والمدة،حتى ضجت الحروف من أثقالها،وقال الإنسان مالها؟إذ لم يكف هذه الحروف ماحملت من النقط مالم تحمله لغة أخرى حتى زيد عليها الشكل ، فانطبق عليها المثل العربى (إن ضَجَّ فَزِدْهُ وِقْراً)يرادفه من العامى(جمل ماقدر يقوم بطنّه قالوا اعقلوه)

لما كان الأمر كذلك لم يلجأ إليه الكتاب إلا عند الضرورة كتعليم الصبية الذين لايحسنون النطق إلا به،ونحو القرآن الكريم لأنه لايجوز اللحن فيه ، ونحو كتب اللغة التى يراد بها ضبط صيغ الكلمات .

ولذلك خلت منه الرسائل والكتب والمجلات والجرائد حتى بعض كتب اللغة لم يشكل منها إلا مايشكل عند النطق به كالأعلام وماقبل آخر الثلاثى.

وقد علمت من بعض الأساتذة أن المتعلمين مبادىء القراءة والكتابة من الأوربيين يتأففون من النقط والشكل كل التأفف، حتى أنه كان يملى على أحدهم قطعة،فكان يكتب بكلتا يديه يكتب الحرف باليمنى وينقطه ويشكله باليسرى، فقال له فى ذلك،فقال : إن اليد الواحدة لاتسعفنى فى الكتابة والنقط والشكل.

حذف الفتحات من الكلمات

لما كانت الفتحة أكثر دورانا فى الكلام ارتأيت أن نبدأ الخطوة الأولى بحذف الفتحات فى جميع الكلمات إذ هى أكثر من نصف علامات الشكل كما تحقق ذلك فى كثير من الأسطر وهاك مثلا من القرآن الكريم (فَحَشَرَ فنادَى، فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمَ الأَعْلَى)

عدد الفتحات فى هذه الآية خمس عشرة، والضمات ثلاثة، والسكنات اثنان والكسرات صفر فنسبة الفتحات إلى مجموع الشكل ٧٥ فى المائة، وهاك مثلا آخر من الشعر.

رَأَيْتُ اللّٰهَ أَكْبَرَ كُلِّ شَيْءٍ مُحَاوَلَةً وَأَكْثَرَهُمْ جُنُودَا

نسبة الفتحات فى هذا البيت إلى باقى الشكل كنسبة ١٨ إلى ١٤ أى أكثر من نصف مجموع الشكل، وقد أحصيت الفتحات فى جميع أوزان الفعل فوجدت أن الفتحات ٦٨ وباقى العلامات ٣٥ وجميع أوزان الأفعال ٢٢ إلا أنها تشمل مئات الآلاف من المفردات [1] وقد اعتبرنا همزات الوصل مكسورة فى أول الأفعال، مع أنها تحذف فى درج الكلام، وقد أحصيت الفتحات وغيرها فى الحروف وعددها ثمانون فوجدت عدد الضمات ستا، والكسرات ست عشرة والسكنات ستا وعشرين، والفتحات ١٠١ فالمجموع ١٥٢ فتكون نسبة الفتحات إلى غيرها كنسبة ٢ : ١ (أى أن الفتحات الثلثان من مجموع الشكل وغيرها الثلث) ولو أحصينا الفتحات وغيرها فى موازين الأسماء لوجدنا الفتحات أكثر من النصف على كل حال.

والطريقة المثلى لحذف الفتحات أن نصطلح على أن كل حرف غير مشكول مفتوح ونعلم التلاميذ ذلك من السنة الأولى الابتدائية حتى يشب التلميذ متمرنا على النطق بكل ما لم يشكل مفتوحا فلا يبقى من الشكل إلا جزء يسير لا يشوه الكلمات، ولا يصعب تعلمه على المبتدئين من الأطفال والأوربيين.

---

(١) آية ذلك أن الصحاح فيه ٤٠ ألف مادة وفى القاموس ٦٠ ألف مادة، وفى لسان العرب ٨٠ ألف مادة. فلو قدرنا أن كل مادة من لسان العرب فيها عشرة أفعال لكان المجموع ثمانمائة ألف كلمة من الأفعال وهاك مثالا للدلالة على أن متوسط ما فى كل مادة من الأفعال لا يقل عن عشرة (مادة صبر) ورد فيها من الأفعال. صبر. يصبر. اصبر. تصبر. اصطبر. اصبر، أصبره. صابر. ما أصبره. صبر به.

ونقتصر على شكل ما يشكل فيما عدا ذلك من كتب طلاب المدارس الثانوية والجامعة وكتب العلوم والفنون .

حذف الفتحات فى اصطلاح القاموس

مما يؤيد اقتراحى هذا ما اصطلح عليه صاحب القاموس من اعتبار حذف الفتحة علامة عليها حيث قال فى المقدمه : وكل كلمة عريتها عن الضبط (أى بالشكل أو اللفظ) فإنها بالفتح (أى مفتوحة الأول ساكنة الثانى ،فإن كانت مفتوحة الأول والثانى قال محركة كما أفاده الشارح) ولكن هل اتبع هذا الاصطلاح فى شكل القاموس عند طبعه ؟ كلا . فقد شكلت جميع ألفاظه شكلا تاما،فضاع غرض المؤلف ، لأنه أراد التقليل من الشكل بحذف الفتحات فى فى أوائل الكلمات،فاصطلح على أن حذف الفتحة علامة لها كما فعلت . ولكن الفرق بين اصطلاحنا واصطلاح صاحب القاموس أنه قصر اصطلاحه على أوائل الكلمات،وأننا جعلناه شاملا لجميع الحروف فصار أعم نفعا، وأدعى لحذف معظم الشكل من الكلمات لتظهر رائعة واضحة كالنبات المزهر الذى تكتنفه الحشائش فتحجب جماله عن الأنظار ، فاذا ما اجتثت من حوله ظهر رونقه واستوقف الأبصار .

أشكلُ ما يُشكِل

ذكر أستاذنا حفنى بك ناصف لذلك عشرين قاعدة غير حاصرة . منها قواعد لما لا يشكل لوضوحه . وقواعد لما يشكل من الحروف خوف اللبس .

(١) فمنها أن المبنى للمعلوم لا يشكل منه إلا عينه للدلالة على بابه . فنشكل السين فى حسُن واللام فى علِم والسين فى حسِب ، والصاد فى ينصُر والراء فى يضرِب ، والتاء فى يفتَح

(٢) ويشكل أول المبنى للمفعول فى الماضى والمضارع نحو فُهم يُفهم وما قبل آخره إذا اشتبه بالرباعى المضموم الأول نحو يُكرَم.

(٣) ومنها أن يشكل ما قبل آخر الرباعى للفرق بينه وبين الثلاثى المبنى المجهول نحو يُـكرِم

(٤) ومنها أن تشكل عين مفعل نحو منظَـر ومجاِس وملعَـب

(٥) ومنها أن تشكل جميع الأعلام إلا مااشتهر منها :

(٦) ومنها أنه لابد من وضع همزة القطع[١] والشدة والمدة فى المد الزائد عن الطبيعى وهو حركتان . فالزائد عن الطبيعى نحو آخذ يؤاخذ ولما يؤاخذ لأن كلا منها يدل على حرف لاعلى حركة فكأنه من بنية الكلمة ، وقد تنوب عن الفتحة ألف قصيرة فى نحو الله وهذه لاتحذف أيضا كالشدة لأنها تدل على ألف محذوفة لا على حركة.

(٧) ومنها الاستغناء عن الشدة فى نحو الرحمن الرحيم أى إذا دخلت ال على حرف من الحروف الشمسية وهى ١٤ (ت ث د ذ رز س ش ص ض ط ظ ل ن) نحو . التمر . الثلج . الدر . الذر . الرق . الزق. السن. الشورى . الصبر. الضمير . الطفل . الظبى . اللحم . النور .

وفيما عدا ذلك تغنى الشدة عن الفتحة أو الفتحتين . والهمزة التى فوق الألف عن الفتحة أو الفتحتين، والتى تحتها عن الكسرة أوالكسرتين ، هذا فى همزة القطع . وتغنى ألف الوصل عن علامته ، تحقيقا لما ننشده من اختصار الشكل، ويكتفى بوضع الحركة على ألف الوصل أو تحتها هكذا اِذهب اُنصر

الاستغناء عن السكون فى ال القمرية

وينبغى الاستغناء عن السكون فى ال القمرية أيضا نحو الأرض . البلح الجلد ، الحمد . الخلد . العلم . الغرس. الفرس . القلب. الكبد . الهر . الورد. اليم

(١) بهذا يجاب عما اقترحه بعض إخواننا من حذف الهمزة مطلقا اكتفاء بحركتها . وقدأجبته أن همزة القطع فضلا عن كونها تنوب عن حرف فانها توضح للفرق بين همزتى القطع والوصل . فأجاب أن قاعدة همزة الوصل والقطع تغنينا عن وضعها كعلامه الاعراب ، فأجبته بأن الشكل وضع للمبتدئين. على أن كثيرا من المتعلمين لايميزون بين همزة الوصل والقطع أثناء القراءة مع علمهم بالقواعد . أما قوله إن حركة همزة القطع تغنى عنها فجوابه أنه إذا وضعت الحركة على كل من همزتى الوصل والقطع حصل اللبس فلابد من وضع الهمزة فى همزة القطع وتركها فى همزة الوصل .

حذف الحركة والسكون فى آخر الجمل

أضيف إلى ما تقدم حذف الضمة والكسرة والسكون عند الوقف تبعا لقاعدة «لا يبتدأ بساكن ولا يوقف على متحرك» وقد جرت المطابع على حذف الحركات من الحرف الواقع فى آخر الجملة وشكله بالسكون تبعا للوقف فيما عدا المصحف. ولكن لا لزوم لوضع السكون أيضا اكتفاء بتفهيم المتعلمين هذه القاعدة، وهى أنه لا يوقف على متحرك. وينبغى أن تتبع هذه القاعدة فى أجزاء القرآن الكريم المعدة للتعليم لا فى المصحف الكامل الذى ينبغى أن يتبع فيه رسم المصحف العثمانى كما فعلت الحكومة المصرية فى المصحف الكبير المتداول الآن.

(١) نموذج من القرآن الكريم بالشكل المختزل

اقْرأْ باسْمِ ربِّكَ الذِى خلق. خلق الإِنْسان مِنْ علق. اقرأْ وربُّكَ الأكْرم. الذِى علَّم بِالقلم علَّم الإِنْسانَ مالمْ يعلم.

عدد الحروف فى هذه الآيات ٧٨ يشكل منها ٢٦ ولا يشكل منها ٥٢ فما يشكل الثلث وما لا يشكل الثلثان

(٢) من الحديث الشريف

قال عليْه الصّلاةُ والسّلام

مثلُ ما بعثنِى اللهُ بِهِ مِن الهُدى والعِلْمِ كمثلِ غيْثٍ أصاب أرْضا فكانتْ مِنها طائفةٌ طيبةٌ قبِلتِ الماء فأنْبتتِ الكلأ والعُشْب الكثير وكانتْ مِنْها أجادِبُ أمْسكتِ الْماء فنفع اللهُ بِها الناس فشرِبُوا مِنْها وسقوْا وزرعُوا. وأصاب طائِفةً مِنها أُخرى إنّما هِى قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماء ولا تُنْبِتُ كلأً، فذلك مثلُ منْ فقُه فى دِينِ اللهِ ونفعهُ ما بعثنِى اللهُ بِهِ فعلِم وعلّم، ومثلُ منْ لمْ يرْفعْ بِذلِك رأْسا ولمْ يقْبلْ هُدى اللهِ الذِى أُرْسِلْتُ بِهِ.

(٣) من الحديث الشريف أيضا

قال عليْه الصَّلاة والسَّلام

مثلُ المُؤْمِنِ الذِي يقرأُ القُرْآن مثلُ الأُتْرُجّةِ رِيحُها طيِّبٌ وطعْمُها طيِّب. ومثل المُؤْمِنِ الذِي لايقْرأُ القرْآن كمثلِ التمْرةِ لا رِيح لها وطعْمُها حُلْو. ومثلُ المُنافِق الذِي يقْرأُ القرآن كمثلِ الريْحانةِ رِيحُهاطيِّبٌ وطعْمُهامُرٌّ. ومثلُ المُنافِقِ الذِي لايقْرأ القرْآن كمثلِ الحنْظلةِ ليْس لها رِيحٌ وطعْمُهامُرٌّ .

(٤) من كلام الإمام عليّ

قال علِيٌّ كرّم اللهُ وجْهه : «الناسُ ثلاثة : عالِمٌ ربّانِيٌّ ؛ ومتعلِّمٌ على سبِيلِ نجاة ، وهمج رعاع : أتْباعُ كُلِّ ناعِق مع كُلِّ رِيحٍ يمِيلون، لمْ يسْتضِيئوا بِنُورِ العِلم ولمْ يلْجئوا إلى رُكْنٍ وثِيق »

نسبة ماشكل هنا إلى مالم يشكل كنسبة ١ إلى ٣ .

هذه هي الخطوة الأولى ، فمتى خطوناها عالجنا الخطوة الثانية وهي البحث عن إمكان وضع علامات في نفس الحرف تغني عما بقي من الشكل (١) . ولي وطيد الأمل أن تبدأ الخطوة الأولى من الآن ، فنحذف الفتحات من كتب المطالعة والمحفوظات والقواعد وأجزاء القرآن الكريم التي توزع على المبتدئين، وكذا كل ماكانت تطبعه المطابع بالشكل الكامل . فهذا يسهل على المتعلمين ضبط الكلمات بقليل من الشكل الذي يظهر واضحا على الحروف لاتساع

(١) ليست الخطوة الثانية من السهولة بمكان بل هي عقبة صعبة المرتقى ، وذلك أن أشكال الحروف العربية في أول الكلمة ووسطها وآخرها ٨٤ فاذا وضعت بها علامات للضمة والكسرة والسكون بلغ عدد الاشكال ٢٥٢ أما بقاء الضمة والكسرة والسكون فلا يزيد في أشكالها . وإن كانت العقبة هي كون العلامة منفصلة عن الحروف ففي اللغة الفرنسية ثلاث مثلها وهي (ê é è)

المسافات بين كل علامة وأخرى، ويتنفس المستشرقون الصعداء، ويقبلون على تعلم اللغة العربية بصدور منشرحة ووجوه مستبشرة

فإليكم أيها الإخوان أقدم اقتراحى هذا وليدا، فغذوه بأفكاركم حتى يترعرع ويشب، وينتشر فى الأقطار العربية التى تعد مصر بحق قائدة نهضتها العلمية والأدبية.

وأكبر ظنى أنه لو قدم هذا الاقتراح لمن ناقشوا الاقتراحات الماضية لحذف الشكل لما ترددوا فى قبوله، لأنه لا يكلفنا شيئا، ولا يمس جوهر الحروف. وإن شئت فقل: إنه أمر سلبى، أو شكل معنوى على أننا ذكرنا فيما تقدم موضعين استعملت فيهما هذه الفكرة غير ناضجة. (الأول) أن من وضعوا الشكل بالنقط على يد أبى الأسود الدؤلى حذفوا منه علامة السكون اعتبارا منهم أن كل حرف غير مشكول ساكن. ولو أنهم حذفوا الفتحة ولم يضعوا لها علامة كاقتراحنا هذا لكان أخصر وأدعى لعدم شحن الحروف بكثرة الفتحات وعذرهم فى ذلك واضح، فإن النقط لم يكن وضع بعد فكان الشكل بالنقط واضحا على الحروف لم يشاركه فيها الاعجام بالنقط، كما حصل ذلك فى زمن الحجاج فعجم الحروف بالشكل والنقط كما قدمناه (والثانى) ما اصطلح عليه صاحب القاموس من حذف الفتحات فى أوائل الكلمات واعتبار هذا الحذف علامة لها. وليس هذا الاقتراح بدعا فى اللغة، فعند النحويين من العلامات المعنوية ثلاث (١) اعتبار الابتداء علامة رفع المبتدأ وهو عامل معنوى (٢) واعتبار علامة رفع المضارع تجرده من الناصب الجازم وهو أيضا أمر معنوى. (٣) وعلامة الحرف أنه ليس له علامة، وقد نظمها بعضهم بقوله:

والحرف ماليست له علامة فقس على قولى تكن علامة

وأنا أقول على هذا النسق:

والفتح ماليست له علامه على الحروف نحو ياسلامهْ

والخلاصة أن ترك الشكل بأجمعه غلط ، وإرهاق الكلمات بجميعه شطط، والاقتصار منه على ضبط مايشكل توسط،وخير الأمور الوسط .

وفى الختام نسأل الله الملك العلام أن يحفظ لنا صاحب الجلالة مليكنا المعظم ، الملك فاروق الأول أيد الله ملكه، وأن يوفق رجال دولته الأمجاد إلى مافيه الخير والإسعاد .

آمين آمين آمين !!

محمد على الدسوقى

مستقبل الثقافة فى مصر

تأليف حضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك

عميد كلية الآداب

نقد للأستاذ سيد قطب

تمهيد :

لا شك أن كتاب الدكتور طه حسين بك عن «مستقبل الثقافة فى مصر» هو كتاب الموسم ، وهو لهذا جدير بالعرض والنقض ، جدير بالبحث والمناقشة.

وليس هو كتاب الموسم فحسب ، ولكنه الكتاب الأول من نوعه بعد الاستقلال الذى يرسم سياسة كاملة للثقافة النظرية ؛ ابتداء من التعليم الأولى ، إلى نهاية التعليم الجامعى ، ملاحظا ما يجب أن يتوفر لخطوات التعليم المتوالية من التناسق والانسجام ، متمشيا فى مراحله كلها بروح واحدة ، وعقلية واحدة ، ترمى إلى هدف ، وتصل إلى غاية ؛ وليس هذا بالعمل اليسير .

وقد آثرت أن أقول : إنه يرسم سياسة كاملة للثقافة النظرية ، مع أنه قد ألم بالدراسة فى كليات الهندسة والزراعة والطب والتجارة والعلوم التطبيقية عامة ؛ ولكن من الحق أن يقال : إنه لم يتحدث عنها ، لأن الدكتور نفسه لم يقصد إلى أن يتحدث عنها ، بل آثر أن يدعها لمن هم أعلم بها ، وأكثر دراية بشئونها .

ولم يرسم هذا الكتاب الضخم سياسة التعليم فحسب ، أو سياسة الثقافة المدرسية فحسب ، ولكنه تجاوزها إلى ما بعد مراحل التعليم كلها ، إلى ثقافة

المجتمع وعواملها : إلى المسرح والخيالة والمذياع والصحافة ، وتجاوزها إلى الأدب والأدباء والجو الأدبى ، وإلى واجب الدولة والهيئات للبحث العلمى والنشاط الفكرى ، وإلى كل ما يتصل بكلمة « ثقافة » بأوسع معانيها ، وفى أوسع حدودها ، ملائما بين كل مرحلة والتى قبلها والتى تليها ، مما يجعل هذا المؤلف دستورا جامعا للثقافة فى مصر كما يريدها مؤلفه .

هذا النحو من البحث جديد فى مصر ؛ جديد إن لم يكن بموضوعه ومادته ، فبشكله وتنسيقه ، فالواقع أن الكثير الغالب من هذه الأفكار التى حواها الكتاب خاضت فيه الأقلام والمحاضرات والأحاديث والتقريرات ، وتناولته دروس الأساتذة فى دار العلوم بالذات فى محاضرات التربية وسواها ، وبعضها من البداهة بحيث لا يحتاج لأن يتناوله حديث أو محاضرة لأنه من الموضوعات المكشوفة المكرورة ، ولكن الجديد فيه بعد هذا وذلك أنه بحث جامع متناسق شامل لمراحل الثقافة كلها ، والغاية منها جميعا .

ونحن قد اعتدنا أن نبحث فى كل مرحلة من مراحل التعليم على حدة ، وأن نفصل بين الحديث عن الثقافة فى المدرسة والثقافة فى المجتمع ، واعتدنا أن نبحث كل لون من ألوان الثقافة منفردا ، وألا نرسم لأنفسنا وجهة محددة ، وغاية أساسية من هذه الثقافات جميعا ... واعتدنا تبعا لهذا كله كثيرا من الفوضى ، وكثيرا من التخبط فى اتجاهاتنا ، وكثيرا من التعارض ، وكثيرا من التناقض بين بين غاياتنا القريبة من كل برنامج ؛ لأنها غايات متنافرة لم تضمها غاية واحدة واضحة مرسومة للجيل كله ، إن لم نقل للأجيال كلها .

والدكتور فى هذا العمل الضخم الذى قام به وحده ، يخطىء ويصيب ، أو على الأقل نرى نحن أنه يخطىء ويصيب ، ويجاوز الغاية حينا ، ويقصر عنها حينا ، وتصفو نفسه ويرتفع مداه تارة ، وتشوب الغايات القريبة خاطره وتغلبه على استقامة المنطق تارة .... ولكنه بعد هذا وذلك خليق بالاعتراف بعمله

العظيم ، خليق بتقدير هذا العمل ، لأن كل من فى الوجود يخطىء ويصيب .

وقد آثرت أن تكون (صحيفةدار العلوم)معرضالآرائى فىهذا الكتاب، فأحب أن أنبه هنا إلى أنى لم أوثرها لأنها مجلة الطائفة التى أنتمى إليها ، أو لأنى متأثر فيما أبديه من الآراء هنا بآراء طائفة بعينها ، متجه إلىعقليتها العامة — أو مايظن أنه عقليتها العامة — حين يهاجمها الدكتور فى هذا الكتاب .

فالواقع الذى يعلمه إخوانى ، والذىأحسب أنالدكتور يعلمه كذلك — أننى مستقل الفكر عن كل عقلية عامة أو خاصة ، وأننى لاأعيش ولاأستطيع أن أعيش فى جو الطوائف ، وأن مدار حكمى على الأشياء مايمليه علىمذهبى الخاص فى الحياة ، هذا المذهب الذى أحسبنى عبرت عنه أوضح تعبير فيما كتبتفى الصحف من آراء فى الأدب والنقد ، وأقربه مانشرفىمجلة«الرسالة» فى خلال ستة أشهر عما « بين القديم والحديث » ومانشر فى عددين منصحيفة دار العلوم عن « الدلالة النفسية للألفاظ والأساليب العربية » . وفى كلا البحثين تظهر هذه العقلية المستقلة ، ويبدو هذا المذهب الخاص .

إنما آثرت « صحيفة دار العلوم » لأنها مجلة أساتذة يشتغلون بالثقافة فى المدارس خاصة ، فالكتاب يهمهم أول مايهم أحدا فى مصر ، ولأنها صحيفة هادئة الطابع ، رزينة الاتجاه ، وهذه صفات لاتتوافر مجتمعة فى صحيفة أومجلة من صحفنا ومجلاتنا .

وفى هذا الكتاب مانوافق الدكتور فيه أشد الموافقة ، وفيه مانخالفه فيه أشد المخالفة ، وفيه مايحتمل الأخذ والرد والزيادة والنقصان .

وقدكان هذا التقسيم نفسه صالحا لترتيب الحديثفى هذا البحث ؛ ولكنى آثرت أن أسير مع المؤلف فى ترتيبه لكتابه . فللدكتور استطرادات جملة من فصل إلى فصل ، ومن موضوع إلى موضوع ؛ وله كذلك قفزات ذهنية عجيبة بين المقدمات والنتائج ، وبين بعض هذه النتائج وبعضها الآخر ؛ وفى

تتبع تلك الاستطرادات ، وتقصى هذه القفزات متاع عقلى خصب ليس من المستحسن أن يحرم منه القراء !

والآن فلنستخر الله ، ونأخذ فى الحديث عن كتاب الدكتور .

***

مصر شرقية أم غربية :

للدكتور وجهة عامة فى كتابه : أن تكون ثقافتنا فى المستقبل ثقافة أوربية خالصة ، وأن يكون اتجاهنا فى الحياة اتجاها أوربيا خالصا ، وأن نتأثر أوربا كما تأثرتها اليابان ، فى غير تردد ولا تلكؤ ، وبلا انتقاء أو تمحيص أو اختيار.

وهو لا يحب أن تكون هذه الوجهة ابتداء ، ولا أن تكون جديدة يبتدعها هذا الجيل ، لأنها فى هذا الوضع تثير اعتراضات يتوقاها هو أشد التوقى ، بل يريد لها أن تكون امتدادا للقديم ، واتباعا للماضى . وهو لهذا يقرر فى سبعين صفحة من صفحات الكتاب هذه النظرية : أن مصر أمة غربية وليست أمة شرقية ، وأنها كانت غربية منذ عهد الفراعنة حتى اليوم ، ولم تكن يوما ما شرقية ، ولم تطق أن تكون يوما ما شرقية !

وهو يعنى بالغرب هنا أوربا ، ويعنى بالشرق الهند والصين واليابان ، ويتجنب أن يذكر غيرها من الأمم إلا تلميحا إلى فارس وجزيرة العرب ، لحكمة سنعلمها فيما بعد !

وفى هذا الفصل أروع قفزات الدكتور الذهنية التى حدثتك عنها آنفا ، بل فيه تتجمع كل هـــذه القفزات ما عدا قليلا منها ينسرب فيما بعد فى الكتاب كله .

وليس هناك اعتراض جدّى على الحقائق الرئيسية التى جاء بها فى هذا الفصل ، فقد يكون معظمها صحيحا فى ذاته . ولكن الاعتراض على الطرق العقلية التى يسلكها إلى هذه الحقائق .

ولما كان الدكتور عميداً لكلية الآداب ، ومن زعماء الأدب والثقافة فى هذا الجيل ، فإنه لا يعنينا منه أن يذكر لنا حقائق صحيحة فى جملتها ، بل يعنينا أكثر أن تكون الطرق العقلية إلى هذه الحقائق صحيحة كذلك ، حتى يكون نموذجا كاملا لتلاميذه الكثيرين ، ولمريديه الكثيرين أيضا .

ونحن لهذا وحده سنتتبع بشيء من الدقة والتطويل آراءه فى هذا الفصل، وإن كنا نعلن مقدما أننا معه — فى شيء من التلطيف والتعديل — فى الغاية الأخيرة التى رمى إليها من كتابته . إنما المتاع العقلى الطريف فى هذه المناقشة، وتصحيح بعض الفكرات الجزئية ، هو الذى يجذبنا إليها .

ويبدأ الدكتور الحديث هكذا :

« ولكن المسألة الخطيرة حقا ، والتى لابد من أن نجليها لأنفسنا تجلية تزيل عنها كل شك ، وتعصمها من كل لبس ، وتبرئها من كل ريب هى أن نعرف : أمصر من الشرق أم من الغرب ؟ وأنا لا أريد بالطبع الشرق الجغرافى والغرب الجغرافى ، وإنما أريد الشرق الثقافى والغرب الثقافى . . »

« فهل العقل المصرى شرقى التصور والإدراك والفهم والحكم على الأشياء ؟ أم هل هو غربى التصور والإدراك والفهم والحكم على الأشياء ؟ وبعبارة موجزة جلية : أيهما أيسر على العقل المصرى : أن يفهم الرجل الصينى أو اليابانى أو أن يفهم الرجل الفرنسى أو الإنجليزى ؟ »

ووضع المسألة فى هذا الوضع تتجلى فيه كل مهارة الدكتور فى المناقشة : فهو قد قسم الدنيا قسمين اثنين لا ثالث لها : قسم تمثله الصين واليابان ، وإن شئت فضم إليهما الهند وأندونسيا ، وقسم تمثله فرنسا وانجلترا وإن شئت فضم إليهما كل دول أوربا وأمريكا .

فلا بد للإجابة عن سؤال الدكتور فى هذا الوضع أن تكون مصر أمة غربية ؛ لأنها — بلا تردد وبدون شك — تفهم الإنجليزى والفرنسى أكثر

مما تفهم الصينى والياباني فى هذا الزمان ! وهذا ماقصد إليه الدكتور من توجيه السؤال على هذا المنوال .

ولكن — لاريب — أن وجه المسألة يتغير ، لو كان الشرق الذى يواجهك به غير الصين واليابان والهند وأندونسيا . أى لو كان هناك قسم ثالث للدنيا يمثله الشرق العربى والغرب العربى ومصر بينهما حلقة الاتصال .

ثم يزداد وجه المسألة تغيرا لو كانت الدنيا أكثر أقساما حسب عقلياتها المختلفة — وهو الواقع — فكانت أوربا وأمريكا تنقسمان بحسب العقلية الديمقراطية والعقلية الدكتاتورية — وبينهما خلاف أساسى لاشك فيه — وكان الشرق ينقسم بحسب أجناسه وهى كثيرة ، وحسب طبيعة بلاده وهى متغايرة . . . إلى آخر الأقسام التى لابد أن يفطن إليها ويدقق فى تمحيصها من يريد وضع مناهج الثقافة حسب العقليات .

وعلام يبنى الدكتور نظريته فى أن مصر أمة غربية ؟

إنه يبنيها على حقيقة معروفة تاريخيا ، وهى أن العقل اليونانى اختلط بالعقل المصرى وأثر الواحد منهما فى الآخر طوال عشرة قرون فلنسمعه يقول :

« التلاميذ يتعلمون فى المدارس أن مصر عرفت اليونان منذ عهد بعيد جدا وأن المستعمرات اليونانية قد أقرها الفراعنة فى مصر قبل الألف الأول قبل المسيح »

« والتلاميذ يتعلمون فى المدارس أيضا أن أمة شرقية بعيدة عن مصر بعض الشىء ، قد أغارت عليها ، وأزالت سلطانها فى آخر القرن السادس قبل المسيح وهى الأمة الفارسية ، فلم تذعن مصر لهذا السلطان الشرقى إلا كارهة ، وظلت تقاومه أشد المقاومة وأعنفها . مستعينة على ذلك بمتطوعة اليونان حينا، وبمحالفة المدن اليونانية حينا آخر ، حتى كان عصر الإسكندر ،

وبالتأمل فى الجمل التى وضعنا تحتها خطا ، نجد الدكتور لايخامره الشك فى

أن المصريين أباحوا المستعمرات اليونانية فى مصر لتوافق العقلين المصرى واليونانى وحده. وأنهم قاوموا الفرس للاختلاف العقلى وحده كذلك، وأنهم لهذا استعانوا بمتطوعة اليونان وبمحالفة المدن اليونانية.

ولا يريد الدكتور أن يفرض أن النزاع السياسى والوفاق السياسى لا يعنيان دائما نزاع العقليات ووفاقها، لا فى القديم ولا فى الحديث، وأنه إذا صح — إلى حد كبير — أنه كان هناك اتصال بين العقلية المصرية والعقلية اليونانية، وكان هناك افتراق بين العقلين المصرى والفارسى، فليست الأمثلة التى ذكرها هى التى تثبت هذا أو ذلك.

وأمامنا الآن فيما يثور من المشاكل السياسية ماينفى مثل هذا المنطق، فاليابان والصين فى حرب طاحنة، وهما فريق واحد فى رأى الدكتور، وإيطاليا تعادى فرنسا وهما أمتان لاتينيتان — فوق أنهما أوربيتان من فريق عقلى واحد فى رأيه كذلك.

وما رأى الدكتور لو قلنا له: إن هذه المستعمرات اليونانية لم تكن مرضية من المصريين وإنما كان يسمح بها بعض الفراعنة المكروهين من الشعب، للجنود اليونانية المرتزقة، لتحميهم هم من غضب الشعب؟ وإن المصريين كانوا ينقمون على هؤلاء الفراعنة تقريبهم للإغريق، ويأنفون من الاختلاط بالمرتزقة، ويصفونهم بأقبح الصفات؟

وما رأيه كذلك لو قلنا له: إن بعض الاغريق كانوا فى جيش فارس كما كانوا فى جيش مصر سواء بسواء؟ بل إذا قلنا له: إنه لم يمهد لاحتلال مصر كما مهدت لها خيانة « فانيس اليونانى » الذى أطلع ملك الفرس على بعض أسرار الهجوم وقدم الرشوة لعرب الصحراء، وأرشد الملك إلى رفع بعض الحيوان الذى يقدسه المصريون على دروع الجنود؟

وما رأيه لو كانت قد حدثت عدة وقائع صغيرة بين الجنود المصريين

والجزر اليونانيين ، وبين مصر وبعض المدن الإغريقية ، كبرقة التى كانت تابعة للإغريق فى عهد « وهاب رع » ؟

ومع كل هذا لنفرض أن المصريين رضوا بمستعمرات يونانية فى مصر، وثاروا على استعمار فارس . أفلا يرى الدكتور أن القياس مع الفارق — كما يقولون — وأن مصر قد تصبر على مستعمرات صغيرة لها فيها مصلحة سياسية وهى سيدة نفسها متبرعة بهذه المستعمرات ، ولكنها لا تصبر على استعمار كامل يفقدها سياستها العامة وسيادتها الكاملة ؛ وأن هذا وذلك لا يدلان على توافق عقلى ولا اختلاف ، لأنه يتم فى كلتا الحالتين على السواء ؟ أولا يرى أن الحروب قديما وحديثا لا تثبت النزاع العقلى ولا تنفيه، وأن الثورات على المستعمرين لا ينظر فيها إلا إلى الحرية والسيادة قبل كل اتفاق عقلى أو اختلاف ؟ وإلا فنيم كانت ثورة مصر على الحملة الفرنسية ؟ وفيم كانت ثورتها على الاحتلال الانجليزى فى العصر الحديث ؟ أكانتا للاختلاف العقلى ، كما ثارت على فارس أم هى الحرية تحركها فى كل حين ؟

وقد صبرت مصر على الاستعمار التركى أطول مما صبرت على الاستعمارين الفرنسى والانجليزى ، بل لقد كانت فى بعض عهودها تحتمى به من الانجليز ، فهل هذا دليل اتفاق عقلى بين المصريين والأتراك ؟ الواقع غير هذا عندنا وعند الدكتور

ويشاء الدكتور أن يمضى بعد هذا فى نفى الوحدة العقلية بين مصر والأمم الشرقية حتى التى تتكلم العربية وتدين بالاسلام ، فيذكر أن الدين واللغة لا يخلقان وحدة وأن المسلمين منذ أقدم عصورهم فطنوا إلى هذا بدليل أن الدولة الأموية فى الأندلس ، كانت تخاصم الدوله العباسية فى العراق .

ولاشك أن الوحدة السياسية هى التى يبرهن عليها هذا المثال ، وبديهى أن الوحدة العقلية هى التى نعنيها ويعنيها الدكتور فى بحثه ، وهى غير الوحدة

السياسية بلا جدال . وإلا فقد كانت الأندلس والعراق على ما بينهما من نفور ، تعيشان بعقلية واحدة أو بعقليتين متقاربتين . يظهر ذلك فى نتاجهما الأدبى والعلمى ، بل يبدو فى أن أدب الأندلس تأثر بأدب المشرق تأثرا ظاهرا ــ على الأقل فى بعض عصوره ـ فلم ينتفع بالبيئة الجديدة إلا انتفاعا محدودا، فى الشكل أكثر منه فى الموضـوع . والدكتور طه بك عميد كلية الآداب سيد العارفين بهذه الحقيقة الأدبية التاريخية .

ولـكنه يمرق من هذه فى رشاقة وخفة إلى نتيجة قاطعـة هى : « أن من السخف الذى ليس بعده سخف اعتبار مصر جزءاً من الشرق ، واعتبار العقلية المصرية عقلية شرقية . كعقلية الهند والصين . . ! »

ولست أدرى من هو الذى اعتبر عقلية مصر كعقلية الهند والصين ؟ ولـكنى أدرى أن مخالفى الدكتور يعتبرونها عقلية شرقية كعقلية مصر ذاتها . . . ! ويرون لهذه العقلية المصرية خصائص تميزها عن العقلية الأوربية ، كما تميزها عن عقلية الشرق الأقصى سواء بسواء .

وفيم هذا التعميم ؟

ومتى كان لأوربا عقل واحد ؟ وللشرق الأقصى أو الأدنى عقل واحد كذلك ؟ ولم لا نقول : إن لـكل أمة عقلا خاصا يتطلب ثقافة خاصة ، وإن هذه العقول قد تتقارب وتتباعد ولـكنها لا تتحد أبدا .

وإلا فما بال البرنامج الدراسى الإنجليزى يمتاز بالتخفيف والتربية الرياضية عن البرنامج الفرنسى ، ويتوسط البرنامج الألمانى بينهما ؟ ــ وهذه أقل مظاهر الاختلاف ــ وما بال الأدب الانجليزى غير الأدب الفرنسى والأمريكى مع أن هذا مكتوب باللغة الإنجليزية ؟ وما بال الفن الروسى غير هؤلاء جميعا فى القديم والحديث ؟

بل ما بال إيطاليا وألمانيا الأوربيتان تنحوان منحى الدكتاتورية فتتابعهما

فيها اليابان فى أقصى الشرق ، وتلتزم انجلترا وفرنسا الأوربيتان أيضا الديمقراطية على اختلاف فيها وتؤمن بها معهما أمريكا ، وهى أقرب فى الموقع واحتكاك المصالح إلى اليابان منهما ، والديمقراطية والدكتاتورية اتجاهان عقليان متقابلان، ويكفى لتقابلهما أن « الدولة للفرد » فى الأولى، و « الفرد للدولة » فى الثانية، ويتبع هذا الوضع كل برامج التعليم وكل مناهج الثقافة ، وكل الشرائع والقوانين ؟

ثم مابال العقلية الرومانية قديما كانت تخالف العقلية اليونانية وهما متجاورتان ومن حوض البحر الأبيض المتوسط الذى يفترض له الدكتور عقلية متحدة ؟

ثم مابال الأساطير اليونانية والأساطير المصرية تكادان لا تلتقيان إلا فى مشابه قليلة ؟ . وما بال القصة تنبت وتترعرع بل تزدهر فى بلاد الإغريق ، ثم لا تكون فى مصر القديمة إلا أقصوصة ساذجة ؟ ... وما بال . وما بال ، مع طول اتصال الأمتين كما يقرر التاريخ ويقرر الدكتور ؟

أليس فى هذا كله مايبرهن على أن التعميم فى النظم العقلية لا يؤدى إلى نتائج مضبوطة ، يمكن أن تبنى عليها توجيهات حاسمة فى الثقافة العامة ؟

الإسلام والمسيحية وأثرهما فى أمم البحر الأبيض :

ويستطرد الدكتور فى هذا الحديث ، ويخشى أن يكون الإسلام — وهو قادم من صحراء العرب ، وهى ليست من حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولم يظلها العقل اليونانى — قد غير عقلية المصريين « التى هى عقلية يونانية . وقد مرت مناقشة هذا الرأى» فينتهى من هذا الاستطراد إلى نتائج فيها بعض الحق ولكن فيها كثيرا من القفزات .

فهو يقول لك : إن الإسلام لم يغير هذه العقلية ، لأنه اختلط بالفلسفة اليونانية ، فأصبح بهذا الاختلاط عنصرا موافقا للعناصر المكونة لهذه العقلية

لا مضادا لها ؛ ولأن الاسلام شأنه شأن المسيحية ؛ والمسيحية لم تغير العقلية الأوربية حينما عبرت إليها ، فما بال الإسلام يغاير المسيحية فى هذه الخلة ، مع أن القرآن جاء مصدقا للإنجيل ؟

فلنناقش هذين الدليلين :

فأما أن الفلسفة اليونانية امتدت إلى الإسلام فهذا مالاشك فيه ؛ ولكن من قال : إن الأديان تطبع الشعوب بفلسفتها وقضاياها المنطقية ؟ إنما المؤثر الأول للأديان هو نظامها الروحى ، وهو تبشيرها وإنذارها ، وهو الصورة الغامضة التى تنطبع فى نفوس أتباعها ؛ ثم هو بعد هذا قوانينها ونظمها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية إن كان فيها « كما فى التوراة والقرآن » مثل هذه النظم .

وما أظن الدكتور يقول : إن شيئا من هذا كله فى الإسلام يتفق مع الفلسفة اليونانية . فالخاصة وحدهم تأثروا هذه الفلسفة، أما الشعب المصرى فقد أثر فيه الإسلام بخواصه تلك ، وطبعه بطابعها ، بل أثر فيه بروحه العربية الخالصة ، والروح العربية من أقوى الأرواح فى أمم العالم « كما يقرر ذلك الدكتور نفسه فى إحدى محاضراته الأخيرة من محطة لندن اللاسلكية » . ولم تعدُ الفلسفة اليونانية مدينة الاسكندرية إلا فى أحيان قليلة ، وظلت « منف » محتفظة بفرعونيتها ، حتى جاء الرومان فكرهتهم وأعرضت عنهم ماوسعها الإعراض ثم جاء الإسلام فاعتنقته راضية ، وتأثرت به مع سائر البلاد .

وأما أن المسيحية لم تؤثر فى طبيعة العقل الأوربى ، فوجب أن يكون الإسلام كذلك ، لأن القرآن مصدق الإنجيل ، ففى هذا القياس توسع فضفاض فى تفسير هذا التصديق .

فالواقع أن الأديان قد تتفق فى ناحية أو نواح ، ولكنها تختلف من حيث طبيعة عقليتها فى نواح . وكل دارس للقرآن وللإنجيل يدرك هذه الفروق : يدركها فى طبيعة الآلة كما يصورها القرآن وطبيعته كما يصورها الإنجيل ، وفى

العلاقة بين الإله والنبي وقومه فى الأول ، وبينه وبين النبي وقومه فى الثانى ، وهذه وتلك من أهم أسس الأديان .

وإذا جاز لنا أن نعقد صلة بين شخصية النبي والدين الذى يجىء به - أو على الأقل أثر هذه الشخصية فى التعاليم التى يتركها النبي لقومه غير الكتاب المنزل ، من الأحاديث والسنن ، فلا بد أن نحسب حسابا للاختلاف الأصيل الواضح بين شخصية « محمد » الرجل العربى الذى يجمع بين الروحانية الرقيقة الشاعرة ، والرجولة القوية الصارمة ، والمزاج العملى المعتدل . وشخصية « عيسى » الوديعة السمحة التى لا تتجلى فيها إلا الروحانية الشفيفة .

على أن هناك فارقا أساسيا بين الإنجيل والقرآن ؛ بل بين الإنجيل فى ناحية ، والتوراة والقرآن فى ناحية ، فهذان يحويان بعد اللاهوت نظما وشرائع وحدودا دينية واجتماعية واقتصادية وسياسية ، بينما الإنجيل يكاد يخلو من هذا كله .

« والمسيح عليه السلام إنما جاء داعية للصفاء الروحى والرحمة واللين والتسامح والعفة والزهد ، ولكنه لم يشر إلا إشارات عارضة ، للنظم الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية ، بل كان يلمح من تصرفاته وتصريحاته أنه لا يستريح إلى قيود التقاليد من الكهان اللاويين والكتبة ، لأنها أعمال ظاهرية ، وهو كان موكلا بالبواطن وبالأرواح . . . فقد أباح لتلاميذه سبت بنى اسرائيل ، وأحل كل مايدخل إلى الفم لأنه لاينجس ، أما الذى يخرج منه « غش . زور . فسق ... » فهو الذى ينجس ، وأباح للتلاميذ الإفطار فى أيام الصوم اليهودية ؛ ولم يرجم الزانية التى جىء له بها معترفة ، لأن الذين سيتولون رجمها — حسب شريعة موسى — ليس فيهم من هو خال من الذنب . ومن أقواله : سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لاتقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك

فاترك له الرداء أيضا ، ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين . . . [١]

وكل مانستطيع الوقوف عليه من شرائع المسيح يتلخص فى قوله :

«قد سمعتم أنه قيل للقدماء لاتقتلا . ومن قتل يكون مستوجب الحكم ؛ وأما أنا فأقول لكم : إن كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم . ومن قال لأخيه « رقا » يكون مستوجب المجمع . ومن قال: يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم . فإن قدمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئا عليك فاترك هناك قربانك قدام المذبح واذهب أولا اصطلح مع أخيك . وحينئذ تعال وقدم قربانك . كن مراضيا لخصمك سريعا مادمت معه فى الطريق ، لئلا يسلمك الخصم إلى القاضى ويسلمك القاضى إلى الشرطى فتلقى فى السجن . الحق أقول لك لاتخرج من هناك حتى توفى الفلس الأخير

قد سمعتم أنه قيل للقدماء لاتزن . وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه ، فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك . لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم ، وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلق جسدك كله فى جهنم .

وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق ، وأما أنا فأقول إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزنى ، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزنى .

أيضا سمعتم أنه قيل للقدماء لاتحنث بل أوف للرب أقسامك . وأما أنا فأقول لكم لاتحلفوا ، إلا بالسماء لأنها كرسى الله . ولا بالأرض لأنها موطىء قدميه . ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم . ولاتحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء . بل يكن كلامكم نعم نعم لا لا . وما زاد على ذلك فهو من الشرير »[٢] .

(١) إنجيل متى الاصحاح الخامس آية ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ .

(٢) إنجيل متى الاصحاح الخامس : الآيات ص ٢١ — ٣٧ .

وحتى هذه التشريعات على قلتها ، إنما تتوجه للتطهر الخلقى أكثر مما ترمى إلى حد الحدود وسن القوانين وبيان الفروض .

فالمسيحية حينما امتدت إلى أوربا وصلت إليها نظاما روحيا وإرشادا خلقيا ، ولكنها لم تضع لها أسسا للتشريع والاقتصاد والسياسة كما وضع القرآن .... حينئذ بقى العقل الأوربى يسيطر على الحياة الدنيوية ويشرع لها ويتصرف فيها ، فلم يتغير منه شىء هام مع المسيحية. أما القرآن فقد وضع العقل المصرى والعقول التى خضعت له فى نطاق معين ، هو نطاق التشريع القرآنى والنظام الدنيوى القرآنى .

ومن هنا كان لابد أن يؤثر فى هذا العقل ما لا يؤثر الإنجيل ، وأن يبقى دائم الأثر حتى تتحلل منه الدولة بالتشريع الرومانى والقوانين الفرنسية منذ نصف قرن ، وهو — مع هذا — لا يزال شديد الأثر فى عقلية التشريع المصرى .

ولو أن التوراة هى التى عبرت إلى أوربا بدل الإنجيل ، لكان لها — ولا شك — أثر أكبر فى تغيير طبيعة عقلها العملية الواقعية ، أكثر مما أثر الإنجيل لأن فيها تشريعا وحدودا ونظاما اقتصاديا ، لا يوجد فى الإنجيل .

ومع هذا فالدكتور لا يقنع بأن اختلاط الاسلام بالفلسفة اليونانية — قد كف أثره فى عقلية المصريين إلى درجة تجعلها تظل قريبة من عقلية أوربا ، بل لا بد أن يؤدى هذا الاختلاط إلى أن « يلغى ما يمكن أن يكون من الفروق بين الأمم التى تعيش فى شرق بحر الروم والأمم التى تعيش فى غرب هذا البحر نفسه » . ثم يؤكد هذا بقوله : « ليس بين الشعوب التى نشأت حول بحر الروم ، وتأثرت به فرق عقلى أو ثقافى ما » .

وما أظن أن وجود صلات — بالغة ما بلغت بين العقليات المختلفة — يمكن أن يلغى كل الفروق ، بحيث لا يكون هناك « فرق ما » وأحسب أن الدكتور

بعد أن يطلع على ما قدمت سيخفف من هذا التوكيدات ، ويطامن من هذا الجزم الشديد.

وفى أثناء حماسة الدكتور لرأيه يقدم لمخالفيه مادة جديدة من البراهين فهو يقول بعد جملته السالفة التى اقتبسناها : « إنما هى ظروف السياسة والاقتصاد تديل من أهل هذا الساحل لأهل ذلك الساحل » .

وما من شك أن للظروف السياسية والاقتصاد آثارا فى العقليات العامة. وأنا لا أريد أن أذهب مع « كارل ماكس » إلى نظرية « التفسير الاقتصادى للتاريخ » ولكنى لا أغفل الاعتراف بأثر السياسة والاقتصاد فى عقليات الأمم ، فإذا أضفنا إلى ذلك طبيعة بلادنا وطبيعة البلاد الأوربية كان لا بد من الاختلاف العقلى . .

وأدنى مراتب هذا الاختلاف ، أن الطبيعة فى أوربا قاسية شحيحة بالقياس إلى الطبيعة المصرية الوديعة الكريمة . فالطبيعة هناك تخزى أهلها وتنبههم فى كل لحظة إلى العمل المتواصل ، وقسوتها وشحها يوحيان إليهم أن يدخروا من أيام الرخاء لأيام الإعسار ، وأن يكونوا على أهبة فى كل وقت لمقاومة الطبيعة الطاغية ، ولا يقتصر الادخار على الماديات ، فإن توالى الأجيال فى هذه البيئة يمدها بأعصاب يختزن فيها قدر من الطاقة الضرورية للتحمل والمقاومة ، وضبط النفس والوقوف للصدمة . على تفاوت فى الأجناس والبيئات — بينما الطبيعة الهينة اللينة فى مصر ، لا تدع المصرى يدخر من الطاقة شيئا لأنه قادر على لقاء الطبيعة كل آن بقوته الحاضرة ، بلا تحفظ ولا ادخار ، ومن هنا يسرف المصرى فى قوته وصحته وماله ، لأن الطبيعة لم تعوده أن يحتاج لادخار شىء من القوة أو القوت ؛ البرد محتمل ، والحر محتمل ، والنهر أليف وديع ، وفى لأهله فى كل عام ، والأرض خصبة غنية الظاهر ، داجنة أليفة الباطن ، لا زلزلة ولا بركان ، ولا جدب ولا حرمان .

الرجل المصرى القوى ، ترى قوته هائجة كلها فى عضلاته الظاهرة، والرجل الإنجليزى القوى ترى هذه القوة كامنة فى ملامحه وأعصابه : الأول كالجندى يحمل سلاحه وذخيرته كلها بيديه ، وليس له رصيد مخزون ، والثانى أعزل ، ولكنه مطمئن إلى أن وراءه مخزنا كاملا للسلاح والذخيرة ، يأخذ منه عند اللزوم .

المرأة المصرية الجميلة تطالع العين منها كل معانى جمالها صريحة واضحة ، وتفرغ لديك كل ذخرها الروحى والعقلى فى جلسة واحدة أو عدة جلسات ، والمرأة الأوربية الجميلة ، قد لا تبهر العين بالحسن ، ولكن جمالها كالنبع الذى الذى يعطيك نفسه رشفة رشفة ، ثم يزيدك فى كل جلسة جديدا لم يكن فى الحسبان .

هذه ناحية واحدة من نواحى الاختلاف بين الطبيعة المصرية والطبيعة الأوربية ، تكفى وحدها للتفريق بين مناهج الثقافة ، ووراءها كثير غيرها ، يتفرع عنها وينظر إليها ، ويؤكد ضرورة التفرقة — إلى حد ما — بين مناهجنا ومناهجهم ، فى كل أنواع التعليم ، أو على الأقل فى التعليم النظرى ، إذ كانت العلوم التطبيقية ملك الجميع .

مصر والحضارة الأوربية الحديثة

ويستطرد الدكتور من العصور القديمة إلى العصور الحديثة ، فيرى مصر تأخذ بالحضارة الأوربية الحديثة ، وحينئذ يجد نفسه قد وفق إلى برهان جديد لا ينقض على أن عقلية مصر عقلية أوربية بدليل أخذها بهذه الحضارة ، وإنما كان الحكم التركى هو الذى قعد بها عن متابعة أوربا فى نهضتها خمسة قرون.

حسن ! ولكن ألا يمكن أن يكون لأخذ مصر بحضارة أوربا فى العصر الحديث سبب آخر غير توافق العقليتين ؟ وما شأن تركيا إذن وهى التى كانت كما يقول الدكتور هى المانعة لمصر من الأخذ بهذه الحضارة ، بينما هى اليوم

مشتطة فى الأخذ بها ، بل مابال اليابان وهى تأخذ بالحضارة الأوربية فى قوة وسرعة ؟ أهذا دليل أيضا لاينقض على أن عقلية اليابان عقلية غربية فى القديم والحديث ، وهى التى كانت منذ عشرين صفحة فى الكتاب فقط تمثل القسم الثانى من أقسام العقليات الانسانية ؟

أفلا يمكن أن نقول فى سهولة ويسر ، وبلا تعسف أو شطط : إن الأخذ بالحضارة الأوربية ضرورة زمنية لابد منها ، نتيجة أن أوربا سبقتنا فى مدارج الرقى ، كما أخذت هى بحضارتنا يوم سبقناها فى مدارج الرقى ، وأن مدنية العالم دواليك ، تأخذ هـــذه من تلك على حسب الظروف ، وأن أمم الشرق لهذا السبب تأخذ اليوم بحضارة الغرب على اختلاف عقلياتها، كاليابان والصين نفسها فى أقصى الشرق ، وإيران وتركيا فى وسطه، وسوريا ومصر فى أدناه ؟

ولكن الدكتور تشتد به الحماسة ، فيرتدى ثوب الخطيب ، ويروح يبرهن لنا على تأصل الروح الأوربية فينا ، وضعف الروح الشرقية ، بأن أشد المحافظين فينا اليوم ، لن يرضوا بالتخلى عن الحضارة الجديدة . ولن يقبلوا الرجوع إلى العصور الشرقية الأولى فى مأكل أو مشرب أو عدة حرب ، وهذا دليل أى دليل على أن المصريين لم يكونوا يوما ما شرقيين !

وأخشى ما أخشاه إن نحن ذهبنا مع استدلال الدكتور إلى نهايته أن نحكم بأن الأوربيين اليوم ليسوا أوربيين !

أليس أهل أوربا اليوم لايرضون أن يعيشوا عيشة الأوربيين السالفين منذ قرن واحد من الزمان ؟

أليس نفورهم هذا كنفور المصريين من حياة الشرقيين القدامى ؟

أليس هذا دليلا على أن المصريين ليسوا شرقيين ؟

أليس ذلك دليلا على أن الأوربيين ليسوا أوربيين ؟

أو مارأى الدكتور ؟!

وبعد فلا بد أن نقرر أن فى اضطرابنا اليوم بين الحضارة المادية الأوربية التى نأخذ بها، وبين عقائدنا وتقاليدنا وضمائرنا – والدكتور يعترف بهذا الاضطراب ويصور مايحدثه فى النفوس من قلق، ويدعو دعوته لإزالته – هذا الاضطراب ذاته بين الحياة الخارجية التى نهيم فيها، والحياة الداخلية المستكنة فى عقولنا وأرواحنا، أكبر دليل على أن عقلية المصريين غير عقلية الأوربيين، وعلى أن هذه الحضارة لاتجد سبيلها ميسرة فى نفوسنا، فتصطدم بها وتثير كامنها، وأنه لابد من مضى زمن طويل قبل أن تطمئن هذه الحيرة، ويسكن ذلك القلق، ونسيغ هذه الحضارة كما أساغها الغربيون.

هذه الحضارة التى يقول عنها كاتب أمريكى: إنها فى نزاع واضطراب مع الانسانية، لأن المخترعات وآثارها – وهى من عمل العقل الواعى – قد سبقت العقل الباطن لأوربا نفسها، وأوجدت بيئة شديدة الجدة على الإنسانية، والانسان لايستريح ويهدأ إلا حين تتوازن نفسه الباطنة مع مايحيط بها من الحياة الظاهرة وتتدرج تدرجا طبيعيا. وهو رأى له قيمته فى تقدير هذه الحضارة؛ لأنه يقوم على نظرية علمية تكاد تصبح مذهبا قائما.

وليس معنى وجود اختلاف بين العقلية المصرية والعقلية الأوربية، أنه حتم أن يكون عقلنا ضعيفا وعقل الأوربيين قويا، وأنه لابد لننجو بأنفسنا من هذه الوصمة أن نندمج فى أوربا اندماجا، كما يريد الدكتور أن يرتب المقدمات والنتائج؛ ليخيفنا من هذه النتائج، فالقويان يختلفان فى أكثر الأحيان، وقلما يختلف الضعيف والقوى فى شأن من الشئون!

وأيسر مايحقق رغبة الدكتور فى الأخذ بالحضارة الأوربية، ويحقق رغبتنا فى الابقاء على مميزاتنا الذاتية، أن نحلل هذه الحضارة إلى عنصرين: الثقافة والمدنية، ونأخذ كلا منهما بآخر تعريف وضعه لها العلماء: فنعتبر الثقافة شاملة لديننا، وفنوننا، ونظمنا الخلقية، وتقاليدنا، وخرافاتنا كذلك.

وهذه يجب أن نحتفظ فيها بماضينا ، ونجدد فيها بمقدار ماتتطلب سنة التطور الطبيعى ،ونعتبر المدنية شاملة للعلوم والفنون التطبيقية ، وتلك نأخذها من أوربا أخذا .

وأنا أدرك أن هذه التفرقة ليست سهلة ، وإنما تحتاج إلى مجهود عنيف للاحتفاظ بالتوازن ، وإلى تركز خلق واجتماعى لم نصل بعد إليه . ولكن هذا هو ماصنعته اليابان التى يضربها الدكتور لنا مثلا أعلى ، فما تزال « الثقافة » اليابانية باقية على أصولها ، فى الوقت الذى أخذت بآخر مثل المدنية الأوربية وزادت فيها . وما العقيدة التى تدفع إلى الانتحار من أجل الامبراطور إلا شاهدا على بقاء اليابان سليمة من كل مزاج أوربى .

ولحسن الحظ أن الدكتور طه لم يكد يفرغ من كتابه الذى نحن بصدده، ويقرر فيه ضرورة الأخذ بالحضارة الأوربية خيرها وشرها ، حتى كتب فى عدد الثقافة التاسع فى تعليق له على كتاب « سندباد عصرى » يقول : «الذوق العام يختلف باختلاف البيئات ، فهناك أشياء يقبلها الذوق العام الأوربى ، وينبو عنها الذوق العام المصرى ، وليس على مصر من ذلك بأس ، فليس من الضرورى أن نشبه الأوربيين فى كل شىء ، ولا أن نقلدهم فى كل شىء ... » وهذا حسبنا من الدكتور !

أما العزة الأوربية التى يحببها إلينا ، ويشوقنا إلى الاستمتاع بمثلها حين نصبح قطعة من أوربا ، فهى دعوة كريمة نبيلة ، ولكن ليست تقاليد الغرب وحدها هى التى تؤدى إليها ، فقد عزت اليابان ولا تزال لها مميزاتها الأصلية، وقد كانت للعرب عزة قومية ، وهم على أخلاقهم الأولى ، التى لم تكن أوربية يونانية !

روحانية الشرق ومادية الغرب :

وفى حنق ظاهر راح الدكتور يتهكم ويستهزىء بمن يحاولون إثبات روحانية

الشرق ، ومادية الغرب ، وفسر الروحانية والمادية تفسيرا يخرج منه بما يؤيد هذا الاستهزاء وذلك التهكم فى ست صفحات طوال ، وكان بارعا فى سوق الأمثلة إلى حيث يريد .

وهذه مسألة قد كفانا الأستاذ الفاضل « أحمد أمين » — صديق الدكتور وزميله — مئونة الكلام فيها ، فبين فى هدوء رزين ، ماذا يقصد بالمادية والروحية ، وذلك فى العدد الثانى من مجلة الثقافة ، بيانا نستريح إليه كل الراحة ، حيث قال :

« هناك معنى آخر قد يكون أقرب إلى الصواب ، وهو أن معنى المادية تفسير ظواهر هذا العالم على أساس المادة من غير التفات إلى عالم آخر روحى وراء هذا العالم ، وبناء كل وسائل الحياة وكل ظواهر المدنية والحضارة والثقافة على أساس المادة وحدها » .

« فليس العقل إلا شكلا من أشكال المادة الدائمة التغيير والتنوع ، وليست أعمال الإنسان مهما دقت إلا نتيجة لمواد الجسم ، وليست كل الظواهر النفسية من فكر وإرادة وعاطفة إلا نتيجة للمخ المادى من حيث عمله وحجمه وتركيبه . . الخ »

« أما الروحانية فترى أن المادة وحدها عاجزة عن أن تشرح كل ما يحدث فى العالم ، بل لا يفسرها إلا القول بوجود شىء غير مادى . شىء روحانى وراء هذا الشىء المادى . فالفكر وظواهر العقل ليست نتيجة المخ المادى .

نعم إن المخ آلة التفكير ولكن يستحيل أن يكون الفكر الإنسانى الذى يشعر بشخصيته وبحرية إرادته نتيجة لمادة لا تحس ولا تشعر ، مهما كانت حالتها من رقى تركيبها وحسن نظامها » .

« فالإيمان بعالم روحانى بجانب العالم المادى من نفس وإله وعالم آخر ، هو أوضح خصائص الروحانية ، وهذا النوع من النظر هو الذى يسود الشرق ، فهو يؤمن بالإلهام الذى لا يعلل ، كما يؤمن بالمنطق الذى يعلل ، على حين أن

النزعة المادية لا تؤمن إلا بسبب ومسبب، وعلة ومعلول، ومقدمة ونتيجة »

وهذا البيان الهادىء الواضح فيه الكفاية للدلالة على الفرق بين طبيعتى الشرق والغرب فى تصور الأشياء . ويمكن أن يضاف إليه من الأمثلة بعض ماتؤدى إليه النظرة المادية فى الغرب من بعض النظريات العلمية والفلسفية المتعلقة بالله ، لبيان الفرق الهائل بين تصور الفلسفة الشرقية وتصور الفلسفة الغربية فى أطوارها الأخيرة لموجد الوجود .

فأما النظرة الشرقية فلا حاجة إلى الإفاضة فيها لأنها معلومة ، وأما النظرة الغربية ، أو أحدث النظرات الغربية فتمثلها « النظرة الزمنية لله » والتى تقول :

« عند النقد والتأمل الدقيقين نستطيع أن نلمح فى تتابع الصفات الحيوية الذى وقع بالفعل فى التاريخ نظاما عاما يطبع هذا التتابع بطابع يميز له عن أى تتابع آخر . هذا النظام هو ما نعبر عنه بلفظة « رقى » أو « تقدم » وقاعدة هذا الرقى هى الانتقال العام من البسيط إلى المركب، ومن العام إلى الخاص، ومن الوحدة والانفراد إلى الاتحاد والائتلاف . أى أن الكون بسننه وتركيبه ، سمح ببزوغ سلسلة من الصفات الحيوية تتسق جميعا فى قاعدة عامة هى هذه القاعدة التقدمية، فعند ما بزغ وعى الانسان أو حبه أو عاطفته أو اجتماعيته ، لم تبزغ هذه جميعا فى عالم معاكس معاد لها ولقيامها ، بل نشأت فى محيط شديد العطف عليها متين الصداقة لها ، أو بالأحرى أنها نشأت لأن الكون أراد لها النشوء . .

« نخلص من هذا إلى تصريحين هامين : أولا أن الحياة وليدة الكون ، ثانيا أن الرقى فى الحياة وليد الكون كذلك .

« والله فى هذا التصوير يصبح . ذاك التركيب فى صلب الكون الذى سمح بالحياة وبالرقى فيها . إن الحياة حقيقة واقعية ، والرقى فيها حقيقة واقعية كذلك. من أجل هذا وجب وجود تركيب خاص للكون يسمح بوقوع هاتين الحقيقتين . هذا التركيب هو الله . .

ألست تشاهد الحياة فى نفسك وفى سواك ، أليست تلوح لك وهى منتظمة فى سلسلة تقدمية متواصلة ، من نقيق الضفدع إلى موسيقى بيتهوفن ؟ كيف أمكن حدوث هاتين الظاهرتين ، الحياة ورقيها ؟ لابد أنه توفر فى الكون تركيب خاص شد أزرها ، ولم يكتف بأن جعل من وقوعها أمرا ممكنا ، بل أحدث هذا الوقوع فعلا . هذا التركيب . هذه الخاصة الكونية . هذا الجانب من أجزاء الكون وحركاته . . هو الله » (١)

هذه إحدى النظريات عن « الله » كما يصل إليها العلم الطبيعى الحديث معتمدا على مذهب النشوئيين ، وليس هنا مجال مناقشة هذه النظرية ، ولكنى أعرضها مقابلة للنظريات الشرقية ، التى قد تسير معها فى خطوتها الأولى ، ولكنها لاتسمح أن يكون « الله » إحدى خواص الكون ، أو جزءا من الكون ، لأنها تفرض الله أكبر من الكون ، ومغايرا له .

وقريب من هذه النظرية نظرية : « الله . المادة . الزمن » والتى تصل فى نهايتها إلى أن الله هو نتيجة التفاعلات العليا بين المادة والزمن ، وهى نظرية رياضية ، تصل الى مايشبه النظرية الطبيعية السالفة .

وليس وراء هذا ماهو أوضح من بيان الافتراق بين الطبيعتين : فمصر على هذا من أيتهما فى نظر الدكتور ؟ قديما وحديثا ، قبل الاسلام وبعده على السواء ؟

***

الدولة والتعليم العام

وإلى هنا تنتهى تلك المباحث المعقدة ، ويجاوزها الدكتور إلى ميدان آخر هادىء لا التواء فيه ولا تعقيد ، وينطلق مستعرضا ناقدا فى عذوبة وصفاء نفسى ، وصراحة جميلة ، وتتجلى كل خصائص الدكتور الطيبة ، وكل شجاعته الأدبية

(١) تلخيص الأستاذ شارل مالك عن الكسندر وموركن وهوتهن ويمان . منتصف أكتوبر سنة ١٩٣٢ .

العالية فى مواجهة عيوب الثقافة فى مصر ، وبيان أوجه علاجها . ويسير كل قارىء مخلص لوجه مصر مع الدكتور فى معظم فصوله التالية ، فى استرواح ولذة مرة ، وفى إعجاب وحماسة مرات .

ويبدأ الدكتور بتصوير اضطراب الثقافات التى تتنازع العقل المصرى ، حسب اختلاف أنواع التعليم ، فى المراحل الأولى التى يفترض المنطق والواجب أن تتحد ، وأن تكون بهذا الاتحاد نواة العقلية العامة للشعب ، وتوحد بين اتجاهاته المشتركة ، وشعوره بالوطن ، وآماله فى مستقبله .

« فهناك التعليم الرسمى الذى تنشئه الدولة وتقوم عليه ، وقد رسمه له الإنجليز طريقة محدودة ضيقة ، فأفسدوه ، أفسدوا نتائجه ، وآثاره أشد الإفساد ... وهناك التعليم الأجنبى الذى قام فى مصر مستظلا بالامتيازات الأجنبية . غير حافل بالدولة ولا خاضع لسلطانها ، ولا ملتفت إلى حاجات الشعب وأغراضه ، ولا معنى إلا بنشر ثقافة البلاد التى جاء منها والدعوة لهذه البلاد ، وتكوين التلاميذ المصريين على نحو أجنبى خالص ، خليق أن يبغض إليهم بيئتهم المصرية ، وأن يهون فى نفوسهم قدر وطنهم المصرى .... وهناك التعليم الوطنى الحر الذى يزعم المحافظة على المناهج والبرامج الرسمية ، ولكنه إلى عهد قريب لم يكن خاضعا لمراقبة الدولة وملاحظتها ، فكان يمضى كما يريد أو كما يستطيع ، وكان يمتاز بخصال أقل ما توصف به أنها مصدر فساد للتفكير ومصدر فساد للخلق ، ومصدر فساد للسيرة العامة والخاصة ... وهناك تعليم آخر تشرف عليه الدولة ولا تشرف عليه ! تشرف عليه لأنه خاضع آخر الأمر لسلطانها . ولا تشرف عليه لأنه مستقل فى حقيقة الأمر استقلالا عظيما ، وهو التعليم الدينى ، الذى يقوم عليه الأزهر الشريف وما يتصل به من المعاهد فى الأقاليم . .. وهو بحكم طبيعته ، وبيئته ، ومحافظة القائمين عليه ، وخضوعهم بحكم هذه المحافظة لكثير من أثقال القرون الوسطى وكثير من أوضاعها ، يصوغ التلاميذ والطلاب صياغة خاصة

مخالفة للصياغة التى ينتجها التعليم المدنى ... وهناك تعليم وسط بين الدينى الخالص والمدنى الخالص تمثله الآن دار العلوم وقد مثلته مدرسة القضاء حينا ... »

ونحن نتابع باهتمام وإعجاب تصوير الدكتور لاختلاف العقليات التى تنشئها تلك الثقافات ، وندرك معه خطر تعدد وجهات المشرفين عليها ، ونقدر خطورة هذا التعدد ، إذا تسلم الطفل منذ مراحل التعليم الأولى ، ونؤمن برأى الدكتور فى وجوب إشراف الدولة على هذه المراحل فى جميع نواحى التعليم ، بحيث يكون التعليم العالى وحده هو الذى يتمتع بالاستقلال ، ويكون حرا فى اختيار طريقه إلى المعرفة فى حدود القانون العام .

نعم يجب أن تشرف الدولة إشرافا فعليا على مرحلة التعليم العام سواء كان ذلك فى الأزهر ، أو فى المدارس الأجنبية ، أو فى المدارس الأهلية ؛ لأن ذلك وحده وفى هذا الطور من أطوار مصر هو الكفيل بتوجيه أسس « العقلية » المصرية فى النشء الجديد ، ويجب أن يكون لوزارة المعارف من المفتشين والمراقبين ، ووضع مناهج التعليم فى القسمين الأولى والثانوى فى الأزهر مالها فى مدارسها المدنية سواء بسواء ؛ لأن استقلال الأزهر لا شأن له بهاتين المرحلتين ، كما أن استقلال الجامعة مقصور على كلياتها . لا على المدارس التى تغذيها وهى مدارس التعليم العام، ولا نرى فى هذا ما رآه الأستاذ الكبير الدكتور عبد السلام بك الكردانى من أن فيه تقوية للمركزية التى يشكو منها الدكتور ونحن معه . فاللامركزية يجب أن تأخذ طريقها بعيدة عن الروح العامة للتعليم .

واجب الديمقراطية :

بعد ذلك يلخص الدكتور مطالب الشعب من الديمقراطية ، فى أن تكفل لهذا الشعب جميعا الحياة والحرية والسلم ، ويرتب على هذه الكفالة ضرورة نشر التعليم الأولى ، وترقية مستواه الحالى ، ويشرح فى أسلوب عذب وتحليق روحى جميل ضرورة نشر هذا التعليم فى مستواه الراقى الذى يشمل تقويم

البلد وجغرافيتها واللغة القومية ومبادىء الحساب والصحة فى مستوى أعلى من المستوى الحالى وشيئا من الأعمال اليدوية .

وقد علق الدكتور الكردانى بك على هذا البرنامج ففضل العناية بالإكثار من الأعمال اليدوية ، ونحن معه فى هذا ، مع تمسكنا بالقدر الذى يقترحه الدكتور طه من التعليم النظرى .

ويستطرد الدكتور طه من هذا وهو يشرح : لماذا يتعلم أبناؤنا تاريخ البلد وجغرافيته استطرادا عذبا فى بيان معنى الوطن ؟ وددت لو أنقله هنا، ووددت لو نقل بنصه إلى كتب التربية الوطنية التى تعلم فى المدارس ، بدل تلك التعريفات الجافة العقيمة للوطن والأمة ، وبدل الكلام السقيم الذى يعللون به هناك حب الإنسان لوطنه، أو الكلام الخيالى الطائر الذى تتضمنه بعض أبيات من الشعر ينقلونها هناك نقلا .

ونحن مع الدكتور فى الواجبات التى يجب أن ينهض بها التعليم الأولى والتى يلخصها فى « تكوين عقل الصبى وقلبه ، وفى حماية جسمه من الآفات والعلل، وتمكينه من النمو المطرد الذى لا يتعرض لاضطراب ولا فساد »

ونحن معه كذلك فيما يجب إزاء هذا المعلم الأولى بأن تكونه الدولة تكوينا صالحا يبتدىء بعد شهادة إتمام الدراسة الثانوية لا قبلها ، وأن تكون الحياة بمدارس المعلمين فى بيئة محترمة راقية المعنوية ، وأن تمكنه الدولة من الحياة الكريمة وتأجره أجرا يلائم عمله الخطير . ويختم هذا الفصل بقول جميل يؤيد ما ارتفعت به الشكوى من الكثيرين ممن يهمهم أمر هذا التعليم .

« لا أعرف شرا على الحياة العقلية فى مصر من أن يكون المعلم الأولى كما هو الآن عندنا سيىء الحال منكسر النفس ، محدود الأمل ، شاعرا بأنه يمثل أهون الطبقات على وزارة المعارف شأنا »

التعليم العام :

ويجاوز الدكتور مرحلة التعليم الأولى ، فيجد التعليم الابتدائى مضطربا، لايستطاع فهم موضعه من التعليم العام ، ويراه أثرا من آثار الاحتلال الانجليزى، فيقترح أن يندمج فى التعليم الثانوى الذى يبدأ بعد التعليم الأولى أو يرافقه فى بعض خطواته ، ويقترح أن يجعل بين التعليم الأولى والتعليم العام منافذ ومسارب لمن تتضح كفايته لهذا التعليم من تلاميذ المدارس الأولية ، فيؤيد بذلك آراء كثير من المخلصين التى أبديت فى هذا الموضوع .

وهو من أجل تحقيق هذه الصلة ، ومن أجل أسباب أخرى — سنتحدث عنها فيما بعد — يقترح أن تكون السنوات الأربع من التعليم العام عارية من تعليم لغة أجنبية، ونحن نوافقه فى هذه الاقتراحات .

ثم يصل الدكتور إلى نظام المجانية الحالى فينكره أقبح الانكار ، ويقترح أن تعقد المسابقات لهذا الغرض فى أثناء التعليم الأولى ، على أن يفضل فى المجانية النابغون من أولاد المعسرين ، فإذا فضل منها شىء فللطبقة التى تليهم فى المقدرة على الإنفاق ، وهو نظام أدنى إلى الانصاف وإلى إبطال المحسوبيات والظلامات .

ويعمد الدكتور بعد هذا إلى بحث نقطة تضطرب حولها الأفكار فى هذه الأيام ، وهى : هل يباح التعليم لجميع الراغبين فيه أم يعمل حساب التعطل والمخاطر الاجتماعية،فيضيق نطاقه إلى القدر الذى تهضمه البلاد ؟

ولا يتردد فى تسفيه الرأى الثانى بقوة ، ويستخدم فى هذا التسفيه كل ماأوتى من قوة فى المناقشة وإدارة الحديث ، ويلوح بالديمقراطية والدستور اللذين ينفيان نظام الطبقات ، وهو مايؤدى إليه حصر التعليم وتضييقه ، ويلوح بتزييف الحياة النيابية التى لايصح لها معنى إلا إذا تعلم الشعب . ويذكر فى ذلك كله كلاما جميلا ، ويحلق فى عليين ، ويرضى الانسانية العالية والشعور الراقى،

ومن بين وسائله فى التدليل على صواب رأيه ، أنه لا يعترف بأن البطالة قد وجدت وجودا حقيقيا فى مصر . « فما ينبغى أن يضطر الشباب المصريون إلى البطالة على حين يستمتع كثير من الأجانب فى ظل مصر بالحياة الناعمة الميسرة ، التى لايجدونها ولا قريبا منها فى أوطانهم ... وهل من الحق أن الدولة محتاجة إلى هذه الكثرة الضخمة من الموظفين الأجانب الذين يتقاضون منها أجورا باهظة ... وهل من الحق أن الدواوين تضيق بالخريجين ؟ ... والشىء الذى لاشك فيه أن إعادة النظر فى أمر المناصب والموظفين خليقة إذا أخذت بالحزم ، أن تقتصد للدولة كثيرا من المال وأن تمنح للشباب كثيرا من أبواب العمل ، فما أكثر الموظفين الذين يتقاضون الأجور الضخمة ولا يعملون شيئا ، وما أكثر الشباب الذين لايجدون مايعملون وهم قادرون على العمل بأيسر الأجر وأقله ... » وهذا كله صحيح .

ولكن الدكتور لايرى إباحة التعليم لكل من يريد ، بل لكل من له استعداد عقلى مناسب ، ويقترح لهذا أن تقوم المدرسة والمدرسون بالنصح للتلاميذ وآبائهم فى المراحل التعليمية المختلفة بتوجيههم إلى نوع التعليم الذى يتفق مع مواهبهم .

ونحن نقول للدكتور : إن هذا لا يمكن أن يتحقق حتى يهب الله لوزارة المعارف عقلا غير عقلها الحاضر ، بل يهب للدولة كلها عقلا غير هذا العقل ، فتعرف للتعليم خطره ، وتحس أن الآفات العقلية جديرة بالاهتمام ، كالآفات الزراعية على الأقل ، فلا تبخل على التعليم بما يكفل التقليل من عدد التلاميذ فى الفصول ، والتقليل من عدد الفصول فى المدرسة وهو ما يقترحه الدكتور فى موضع آخر وما اقترحه من قبل صاحب المعالى نجيب بك الهلالى وهو وزير للمعارف . واقترحه الدكتور حافظ عفيفى باشا فى كتابه «على هامش السياسة» ولا تبخل على المعلمين بالأجور التى تريح بالهم ، وبالنظم والضمانات التى تجعلهم

يحسون بكرامتهم ويأمنون على أنفسهم كالقضاة فى أحكامهم.

حينئذ فقط تستطيع المدرسة أن تقوم بما يطلب إليها الدكتور من هذا الإرشاد وذلك التوجيه، أما قبله فكل مايقال كلام فى كلام.

ومن العجيب فى أمر الدكتور أنه يطلب هـذا التوجيه من المدرسين والمدرسةوهو لا يتحقق ولا يكون صحيحا إلا إذا كان المدرس خبيرا بالدراسات النفسية الحديثة متقنا فى التربية وعلم النفس، بينما هو يعارض فى أن يزود المدرس بقدر كبير من هذه الثقافات، ويرى أن يقتصر على جانب قليل منها.

ولكن الذى يحيد بالدكتور هذه الحيدة، أن كلية الآداب تتدخل فى هذه المسألة وتبدو مصلحتها فى الاقتصار على جانب محدود من علوم التربية. وهذا يكفى!

الديوان والمركزية

ويرتفع الدكتور إلى القمة، وهو يصف مايجب للمعلم من الثقة والكرامة والاحترام، ويصور أثر المركزية وأثر تدخل الديوان فى الغض من هذه الأمور الواجبة، ولا نجد نحن أصدق فى تصوير هذه الحالة من قوله:

« والشىء الذى لاشك فيه، والذى يعرفه كل واحد منا، ويتحدث به إلى نفسه إذا خلا إليها، وإلى أصدقائه إذا أمن الرقيب، هو أنه لو كشف عن نفوس المعلمين والمتعلمين والمشرفين على التعليم، لرأينا فيها شرا عظيما، شرا مخيفا يملأ القلوب فزعا وإشفاقا. لو كشف عن نفوس المعلمين والمتعلمين والمشرفين على التعيم لرأينافيها شكا، وريبا، وبغضاوازدراء، وخوفا وإشفاقا؛ ولتساءلنا بعد ذلك: على أى شر ونكر نريد أن نقيم بناء الجيل الجديد؟

ثم يقول عن وزارة المعارف:

«إننا لانعرف وزارة من الوزارات المصرية يشتد فيهاالتنافس البغيض بين الموظفين، ويشتد فيها مايتبع هذا التنافس من التباغض والتحاسد، ومن الكيد

والمكر . ومن الارتياب بكل شىء وبكل إنسان ، وسوء الظن بكل شىء وبكل إنسان كوزارة المعارف. فيها تجد ماشئت ومالم تشأ من مكر الصديق بالصديق ، وكيد الزميل للزميل ، وتوقع الشر من كل مصدر ، والتماس الخير من كل مصدر، وفيها تجد التنافس بين الطبقات ، والتنافس بين الأفراد ، والتنافس بين الطوائف ، فالمعلمون ينكرون المفتشين ، والمفتشون ينكرون المعلمين ، كما ينكرون كبار الموظفين ، وكبار الموظفين ينكرون أولئك وهؤلاء .)

ويتحدث بمثل هذا عن الفنيين فى وزارة المعارف ، الذين يوافقون كل وزير على سياسته ، ولا يعلمون لهم رأيا فنيا يدافعون عنه ، ويعزو إلى هذا الضعف اضطراب سياسة التعليم ، ويرى أن الوزارات الأخرى لاتضطرب هذا الاضطراب،لأن فيها موظفين ذوى آراء ينصحون للوزير،ويثبتون على ما يعتقدونه حقا ، ولا يستثنى من هذا الضعف إلا ثلاثة ثبتوا على آرائهم ، لم ترهبهم سطوة الوزير ، وهم الأستاذ نجيب الهلالى بك سنة ١٩٢٥ ، ومدير الجامعة الأستاذ لطفى السيد باشا ، والدكتور طه حسين بك سنة ١٩٣٥

وقد كنت أحب للدكتور وهو يسجل هذه المثل المجيدة النادرة فى تاريخ وزارة المعارف ألا ينسى اسمين آخرين : أحدهما اسم المرحوم الأستاذ أبو الفتح بك الفقى وموقفه مع صاحب المعالى نجيب بك الهلالى سنة ١٩٣٥ معروف ، والثانى اسم حضرة صاحب العزة صادق بك جوهر وموقفه مع صاحب المعالى زكى العرابى باشا سنة ١٩٣٦ معروف كذلك .

ومهما يكن من شىء ، ومهما يكن اختلافنا أو اتفاقنا مع الدكتور ،فيجب أن نسجل له هذه الصراحة المؤلمة فى تصوير عيوب وزارة المعارف الأساسية، التى يراها عقبة فى سبيل كل إصلاح للتعليم .

ونحن نتابعه فى اقتراحه : مجلسا أعلى لوزارة المعارف يشير على الوزير فى المسائل العامة،ويختص وحده بتأديب المدرسين ، ومجلسا لكل إدارة من إدارات

التعليم يرأسه المدير ويتألف من أعضاء عن الجامعة ومن بعض نظار مدارس هذه الإدارة ومدرسيها .

ولا نوافق الدكتور عبد السلام الكردانى بك على إنكاره لهذه المجالس إلا فى أن يكون للمجلس الأعلى الإشارة على الوزير فى السياسة اليومية ، فنحن مع الأستاذ فى أن يكتفى هذا المجلس بالتوجيه فى المسائل العامة ، ونشترط اختصاصه بتأديب المدرسين .

مشكلة الامتحانات .

ويحاول الدكتور علاج المشكلة الخالدة فى مصر : مشكلة الامتحانات ، فيستعرض كعادته عيوب الامتحانات ، ويصور فى صدق ووضوح أثر هذه العيوب العقلية والخلقية ، وضرر تدخل السلطات التنفيذية تحت ضغط السياسة لخفض الدرجات وتقرير الملاحق . ثم يقترح علاجا لذلك أخذت به بعض الأمم ، وتحدث عنه الأستاذ القبانى حديثا وافيا فى محاضرة له عن الامتحانات؛ ويتخلص فى إلغاء امتحان النقل فى مدارس التعليم العام ، إلا أن تقضى بذلك الضرورة ، ويكتفى بآراء المدرسين بعد أن تمنحهم الوزارة الثقة الكافية لخلق الأمانة فى نفوسهم وتنميتها ، وتيسير امتحان الإجازات العامة ، بعد تقرير عقد امتحانات مسابقة غيرها للدخول فى الوظائف .

وهذه اقتراحات متواضعة ، إذا قيست بما اقترحه الأستاذ القبانى، وما أخذت به فعلا بعض الأمم من إدخال مقاييس الذكاء فى الامتحان ، واختبار العقلية لا التحصيل العلمى ، وهو ما نطمع أن نصل إليه فى يوم من الأيام .

المعلمون :

ويستطرد فى بيان عيوب الامتحان إلى أنه يكره التلميذ عن القراءة وحب الاستطلاع فلا ينسى أن يقول : إن المدرسين كذلك لا يقرءون . ولكنه

لا يقسو على المعلمين الحاليين مع أنهم لم يتخرجوا فى الجامعة ! كما قسا عليهم فيما بعد ، بل يصور عذرهم فى هذا أجمل تصوير ، وهو أنهم لا يجدون وقتا للقراءة ، لأن الدولة ترهقهم بالعمل إلى حد غير معقول ، ولأنها تضيق عليهم فى حياتهم المادية ، ولأن حياتهم المعنوية قاتمة مظلمة ، ولأنهم لا يتمتعون بالثقة والكرامة .

برامج المدارس العامة :

ويأخذ الدكتور بعد هذا فى رسم الخطة للتعليم العام ، على النحو الجديد الذى اقترحه له من النظام وفى هذا يشتط خياله ، ويغريه المثل الأعلى فيبتعد عما يمكن ؛ وتظهر آثار الثقافة الفرنسية ، تشبع نفس الدكتور بها ، ويبدو متناقضا أو شبه متناقض مع الدكتور طه بك الذى يدعو إلى تخفيف الامتحانات والكف عن توجيهها ، إلى اختبار الذاكرة والتحصيل العلمى .

فهو أولا يتوسع فى تعليم اللغات الأجنبية توسعا عجيبا ، حسبك أن تعلم أنه يشمل إدخال لغتين أخريين هما الطليانية والألمانية ، وتقرير اللغتين اللاتينية واليونانية ، واللغتين الفارسية والعبرية . وذلك منذ السنة الخامسة فى التعليم العام أى بعد المرحلة الابتدائية التى يقصرها على اللغة الوطنية .

وهو ثانيا يريد تنويع التعليم العام من بعد المرحلة الابتدائية مباشرة إلى ثلاثة أنواع : أحدهما الذى يعتمد على اللغات الحية والذى يتجه بعد الثقافة العامة اتجاها رياضيا أو علميا . والثانى التعليم الذى يعتمد على اللاتينية واليونانية ، ويتجه بعد الثقافة العامة إلى الدراسات الأدبية على اختلافها . والثالث التعليم الذى يعتمد على اللغة العربية ويتجه بعد الثقافة العامة إلى الدراسة الأدبية العربية الخالصة (وهذا هو الذى يدرس العبرية والفارسية) .

ولم تدركنى الشفقة على الدكتور . ولم أخالفه وأنا أميل إلى موافقته وأجاهد نفسى على نسيان رأيى ومتابعته ، إلى حين رأيته يجاهد فى مشقة وعنف لتبرير

دراسة اللغات الميتة والقديمة فى التعليم العام.

وللدكتور فى هذه اللغات حجج تبدو مستقيمة ، وهى أن الجامعة تضطر إلى تعليمها للطلبة بعد مجيئهم إليها فيتعطلون . ولا يبلغون الغاية فيها ، وأن الثقافة العقلية العالية تحتم دراسة اللاتينية واليونانية ، وأن الجامعات فى العالم كله تعلم اللاتينية ، فوجب أن تكون الجامعة المصرية مثلها ، وأن اللاتينية ضرورية لإتقان اللغات الحية .

ونحن لا نحاول معارضة الدكتور فى وجوب تعلم هذه اللغات فى الجامعة، وهو أدرى منا بضرورتها للدراسات العالية ، ولكننا لا نستطيع أن نوافق على دراستها فى مرحلة التعليم العام ، ولو وافقنا ما استطاع البرنامج أن يتسع لها ، مالم يقع فى العيوب التى نشكو منها .

والعلاج الذى يقترحه الدكتور للتخفيف وهو تنويع التعليم الثانوى من أوله لست أنا وليس الدكتور هو الذى يحكم عليه بالصلاح أو الفساد ، وإنما يجب أن يدلى فيه علماء النفس والتربية بآرائهم ، وأظنهم سيقولون: إن مواهب التلميذ واتجاهه لا تتضح فى هذه السن وفى هذه الدراسة وضوحا يجعلنا نطمئن إلى اختيار طريق من طرق التخصص له .

ونحن نشفق أن تكون الثقافة الفرنسية التى ثقفها الدكتور ، واكتظاظ البرنامج الفرنسى بالمواد هو الذى أوحى إلى الدكتور من حيث لا يشعر هذه الترجمة الهائلة فى برامج التعليم العام . ونحن كذلك نؤثر البرنامج الإنجليزى المخفف من المواد، المعنىّ بالعقلية العامة والرياضة البدنية على البرنامج الفرنسى، فإذا كان لابد فالبرنامج الألمانى المتوسط بينهما هو الأصح لنا فى فترة الانتقال .

وأنا شخصيا أنكر كل برنامج يكلف التلميذ من سن السابعة إلى العاشرة أن يشتغل بالدراسة النظرية أكثر من أربع ساعات فى اليوم بحال من الأحوال،

وأنكر كل برنامج يكلفه من سن الحادية عشرة إلى السادسة عشرة أكثر من ست ساعات، أما ماعدا ذلك فللرياضة البدنية، وللفنون الحرة، وللقراءة الشخصية.

ولنذكر دائما أن الجامعة كالمدرسة خلقت للطالب ولم يخلق الطالب لها، فلا يجوز بحال أن تكون مطالب الجامعة فوق المطالب المعقولة للبنية والعقل والطاقة المحدودة للتلميذ، وإذا بدا لهذه الجامعة أن تتمسك بمستوى خاص من الدراسات، فليكن ذلك بإطالة سنواتها هي، أو بتنويع برامجها هي، بحيث توفر للطالب المتخصص الوقت الكافى وتعفيه من بعض المواد التى لايحتاج إليها فى تخصصه .

ونحن نخشى أن يقول بعض الخبثاء: إن الدكتور إنما يحرض على اللغات اللاتينية واليونانية، والعبرية، والفارسية، كما يحرض على إدخال اللغتين الإيطالية والألمانية، لأن بعض خريجى الجامعة ثقفوا هذه اللغة، فلابد أن يشتغلوا إذن بتدريسها فى المدارس!

وإنا لاننكره لخريجى كلية الآداب أو غيرها أن يجدوا عملا، ولكن ربما حرص هؤلاء الخبثاء على إثبات أن مصلحة هؤلاء الخريجين، لا يجوز أن تعتدى على مصلحة التربية والثقافة!

ولن ننسى هنا أن نعلن موافقتنا التامة للدكتور على تمكين اللغة القومية من الانفراد فى السنوات الأولى، فاللغة العربية فى الواقع لغة أجنبية بالنسبة للطفل المصرى وبيئته، وهو يلاقى فى تعلمها عنتا كتعلم لغة أجنبية عنه، فوجب أن يتوفر لها الوقت الكافى.

وقد سبقت جماعة دار العلوم بهذا الرأى فى تقرير لها عام ١٩٣٨ على إثر ضجة من الضجات المفتعلة عن ضعف اللغة العربية فى المدارس، فقالت فى هذا التقرير ما يأتى بعد ذكر عدة أسباب لتعويق خطوات اللغة العربية فى المدارس:

«ولا ننسى — إلى جانب ماتقدم — أن اللغة الأجنبية تغزو عقل الطفل فى سن

بكرة ، فى المدارس الابتدائية ، كما هو معلوم ، وتنال من زمن الطفل وجهده
نصيبا ، كانت اللغة القومية والثقافة العقلية أجدر به وأولى . ولسنا هنا بصدد
البحث النفسى المستفيض فى استعداد الطفل لتلقى لغة أجنبية فى السن المبكرة
من الدراسة الابتدائية ، ولكننا نشير إلى حقيقة تدرك معكوسة ويتخذ من
عكسها أساس لإدخال اللغات ابتداء من السنة الأولى الابتدائية.

ذلك أن المرونة العقلية ، التى يظن بعضهم أنها تسوغ هذا التبكير ، إنما
تكون على أشدها بين الثالثة والسابعة ، وتكون مقدرة سمعية تقليدية أما فى
سن السابعة فإنها تفتر إلى حد جعل الباحثين لا يرون من الصواب أن يشغل
العقل بلغتين فى وقت واحد . على أننا نترك هذا البحث فالمربون قد فرغوا من
التدليل عليه »

✡ ✡ ✡

قضية اللغة العربية وتدريسها

وددت ألا أتحدث عن هذا الفصل من كتاب الدكتور ، فأنا وهو متهمان
حين نتحدث بالميل والهوى . ولكن لابد من هذا الحديث ، فقد استغرق هذا
الفصل من ص ٣٠٣ إلى ص ٤٠٣ فى الكتاب. مائة صفحة كاملة لا يجوز أن نتجاوزها
مهما يكن الاتهام الذى يوجه إلينا ، ونحن لن نسوق الحديث فيها بالعاطفة
والهوى ، فللقارىء عقل نضع أمامه الحقائق التى نراها وهو الحكم بيننا وبين
الدكتور طه حسين بك .

وسنلخص آراء الدكتور فى هذه المسألة الشائكة ثم نعلق عليها :

١ — أن الأزهر لا ينبغى له أن يساهم فى تدريس اللغة العربية بالمدارس
العامة ، ما لم تشرف الدولة على قسمه الابتدائى والثانوى ، حتى تضمن بذلك
وحدة الطبيعة العقلية بين جميع المثقفين فى البلد ، وخشية أن يبث فى التلاميذ
الصغار مبادىء رجعية تتنافر مع الدراسة المدنية التى يدرسونها ، وتوقع ذهن

الطالب وضميره فى اختلاط وارتباك بين العقليات المختلفة التى تشرف على تثقيفه .

هذا . ولأن خريج الأزهر حين يعين فى مدارس الدولة يخضع لسلطتين متناقضتين فى آن واحد : فهو خاضع للدولة التى وظفته ، وفى الوقت نفسه خاضع لسلطة هيئة كبار العلماء ، التى تملك سحب شهادته منه . فتضطر الدولة للخضوع لهذا الحرمان ، لأن شهادته هى التى تخوله التدريس ، أو تقع فى صدام مع هيئة كبار العلماء . وليست مسألة الأستاذ الشيخ على عبد الرازق بعيدة عن الأذهان .

وهذا كله حق ، لا لأنه يوافق هوى فى نفسى عن قضية اللغة العربية بين دار العلوم والأزهر ، ولكن لأنى لا أدرى كيف يرد الإنسان على هذه الأسباب المقنعة الوجيهة .

لا بل إننا لنزيد عليه إن إشراف الدولة ـ عن طريق وزارة المعارف ـ لا ينبغى أن يقف عند القسمين الابتدائى والثانوى من الأزهر . بل يجب أن تشترك فى إعداد المتخرج فى كلية اللغة العربية — وإذا أصر الأزهر على بقاء هذه الكلية ، ولم تجد الدولة فى نفسها من الشجاعة ما تقول له به : نحن لسنا فى حاجة إلى كليتك هذه — فللأزهر أن يشتغل فى كلياته الأخرى التى يعدها لمهام دينية بحتة ، ولكن ليس له أن يستقل فى الكلية التى تخرج المدرسين لمدارس الوزارة . وإذا كانت وزارة المعارف لا تزال تصر — ولها الحق فى هذا الإصرار — على بقاء دار العلوم ومعهد التربية بعيدين عن الجامعة ، فإنها خليقة من باب أولى أن تبعد كلية اللغة العربية عن الأزهر أو على الأقل تشرف عليها إشرافا فعليا ، قبل أن تسلم خريجيها أبناء الأمة الصغار ، يصوغونهم حسبما يريدون .

٢ — أن اللغة العربية ضعيفة فى المدارس ، صعبة القواعد ، معقدة

الأساليب ، وأن هناك خطرا كبيرا — إذا لم تصلح هذه اللغة وتصلح دراستها فى نحوها وصرفها وإملائها — أن تنزع الأمة عنها إلى اللغة العامية ، وإلى الحروف اللاتينية ، وأن الطلبة يجدون فى دراسة اللغات الأجنبية متاعا ولذة، لا يجدونهما فى اللغة العربية .

ونحن مع الدكتور فى صعوبة قواعد اللغة العربية نحوها وصرفها وإملائها وفى وجوب إصلاح هذا كله ، والتخفف منه إلى القدر المستطاع ، وما نأبى هذا الإصلاح .

وإذا كان الدكتور قد أحنقه وقوف بعض الهيئات فى سبيل اقتراحات اللجنة التى شكلت لهذا الغرض ، فصاح صيحة الخطر ، فنحن لم نعارض فى مبدأ الإصلاح إنما كانت هناك ملاحظات ومآخذ على طريقة الإصلاح ؛ لأن اللجنة لم تحل الصعوبات ، ولكنها دارت حولها دون أن تواجهها مواجهة منتجة . فإذا قيض الله لها أو لغيرها أن تهتدى إلى حلول سليمة كان من الواجب الأخذ بها .

ولا أدع هذه الفرصة ، قبل أن أقرر أنى مع الدكتور فى إصلاح دروس البلاغة لأنها فى وضعها الحاضر تعتبر عندى مفسدة للذوق الأدبى ، وزائدة ثقيلة ، فيجب أن ترتقى من هذه القواعد الجافة إلى النقد الفنى ، وأن تكون دراستها فى النص الأدبى وتفسيره وشرح مزاياه الفنية ، دون التعريفات؛ وأنى معه كذلك فى التخفف من أبواب الصرف إلا اليسير الدائر على الألسنة ، وفى إصلاح الإملاء بحيث يوافق النطق الكتابة ، وقد سبق أن أبديت هذا الرأى فى العام الماضى على صفحات « الأهرام »

وقد درست اللجنة العلمية لجماعة دار العلوم موضوع تيسير اللغة العربية فى المدارس العامة ، فذهبت إلى اقتراحات تؤدى إلى هذه الغاية نفسها ، فى أسلوب متحفظ رزين . وهذه هى القواعد العامة التى بنت عليها برنامجها الذى اقترحته

متصلا فى النحو والصرف :

(ا) تترك التعاريف النحوية بتاتا ، فإن الأمثلة التى تمر بالسمع و بالنظر وتنال العناية من الشرح والتفهم أجدى فى فهم القواعد فهما علميا وفى تعرف وظيفة الكلمة فى الجملة وارتباط هذه بمالها من حكم إعرابى أوغير إعرابى وأدنى إلى محاكاة المتعلم لهذه التراكيب ، وإلى طبع لسانه على التعبير الصحيح . وهذه الطريقة ، طريقة عرض العبارات الصحيحة على المتعلمين ، هى الطريقة الطبيعية فى تعلم اللغات والإلمام بخصائصها .

على أنا حين نلجأ إلى الأمثلة لتعرف القاعدة لا نبعد عن الأصول المنطقية، فالتعريف بالمثال صحيح متداول فى الكتب القديمة والحديثة .

(ب) يجتنب من الألفاظ الاصطلاحية مالا داعى إليه ، ونوجه ذهن المتعلم إلى وظيفة الكلمة فى الجملة وما أفادته من معنى ، وإن بعض الألفاظ الاصلاحية يمكن الاستغناء عنه بعبارات أقرب فهما وأيسر منا لا للمتعلم مع الوفاء بالغرض الذى من أجله وضع الإصلاح.

(ح) إن الغرض من الإعراب هو ضبط أواخر الكلمات ، وبيان سبب هذا الضبط ، وحسبنا أن نعبر عن هذا بطريقة موجزة ، وليكن أساسه فهم وظيفة الكلمة فى التركيب .

(د) لاداعى للتعرض لاعراب ماليس لإعرابه أثر عملى فى فهم الجمل أو ضبط الكلمات ، كأدوات الشرط وصيغتى التعجب ونحو ذلك .

(ه) لاداعى للتعرض لعلامات بناء الماضى والأمر وأحوالهما المختلفة ، فإن ضبط الآخر فيها يكاد يكون طبيعيا فى جميع الأحوال ، وليس النص على مابنى عليه الفعل إلا تعبيرا عن الأمر الواضح المحسوس .

(ز) لاداعى للنص على بناء الحروف ، مادام المتعلم قد عرفها بهذه الحالة الخاصة ، فهذا النص إنما هو من قبيل تقرير الواقع الذى لايحتمل تغييرا .

(ح) القواعد القليلة الورود لا يبحث فيها إلا عند الضرورة ، على أن يكون ذلك بإيجاز مثل عمل (لات) وحكم المفعول معه .

(ط) تترك القواعد التى لا أثر لها فى ضبط الكلمات أو طرق اشتقاقها ، كشروط عمل اسمى الفاعل والمفعول ومواضع الابتداء بالنكرة ومجىء الحال معرفة أو من النكرة إلى غير ذلك .

وهذه الأسس - كما يرى الدكتور - تحقق غاية من تبسيط النحو والصرف بلا خروج على النحو المعروف ، ودون تعارض أو اصطدام .

وأما أن دراسة اللغة العربية فى المدارس فاسدة ، وأساليبها هى أساليب القرون الوسطى ، وأن هناك خطرا من الانتكاس إلى العامية ، وأن اللغات الأجنبية أكثر منها نتاجا فليسمح لى الدكتور أن أخالفه فى ذلك كثيرا .

ولا يحسب الدكتور أو غيره أننى راض كل الرضا عن دراسة اللغة العربية فى مدارسنا ، فإن لى عليها مآخذ :

منها أنها لا تعنى بخلق الذوق الأدبى الممتاز أو تنميته ، ولا تفسح له الطريق حين يوجد فى نفوس الطلاب ، بل هى تضايقه وقد تخنقه .

ومنها أن دراسة الأدب مع ما نالها من الاعتدال بتدريس تاريخ العصر الحديث أولا والتدرج منه إلى العصور القديمة ، فإنها لا تزال ترزح تحت اختيار سخيف للنماذج ؛ وقد ابتدأت من عصر كان الأدب فيه منحطا ، لم تدركه النهضة الأخيرة بروحها وحياتها ، فهو خليق أن يبث فى نفوس التلاميذ مذاهب أدبية منحطة ، وأذواقا فنية رديئة . ومن رأيى أن التلاميذ فى المدارس الثانوية لا يصح أن يدرسوا أو يحفظوا إلا العصور الحية والنماذج العالية فى الأدب العربى ، وأن تترك الدراسة المفصلة إلى الأقسام العالية ، حين نضمن أن ذوق التلميذ قد تربى ، ولم تعد تؤثر فيه النماذج السيئة .

وليس أخطر على ذوق الشادى فى الأدب من أن نبدأه بنماذج من الساعاتى

وعبد الله فكرى باشا وأمثالها، حتى إذا تدرج عاد لعهد البهازهير وابن سناء الملك وابن مطروح وأمثالهم.

ومنها أن كتب المطالعة موضوعة على غير أساس فنى، وبلا وجهة معينة؛ وإنما هى بضعة موضوعات حشرت حشرا وجمعت جمعا؛ ويستوى فى هذا جميع الكتب حتى التى اشترك فيها رجال الجامعة. وكان يجب أن توضع على أساس تعليمى، فتتضمن أولا نظاما خاصا لبث المعلومات العامة فى نفوس الطلاب بتدرج مقصود؛ وتتضمن ثانيا نظاما خاصا فى التعريف بمفردات اللغة فى تراكيب مختلفة تشرح خصائصها، بحيث يحوى كل موضوع عددا من هذه المفردات ومشتقاتها فى ثناياه: وتتضمن — كما اقترح الدكتور — قطعا مترجمة من الآداب الأجنبية المختلفة.

ومن هنا يعلم الدكتور أنى معه فى كثير من آرائه عن دراسة اللغة العربية. ولكن من العدل أن نقول: إنما هى مآخذ منظور فيها إلى المثل الأعلى، وأن الدراسة الحالية - وإن لم تكن قد بلغت هذا المثل - لم تنحط إلى حيث يريد أن يصورها الدكتور.

بل نحن نرتقى من هذا فنقرر أن اللغة العربية قد تقدمت كثيرا، وهى دائبة التقدم على أيدى مدرسيها الحاليين؛ وهى لا تنحسر عن المجتمع المصرى لتخلى مكانها للعامية، بل هى — على العكس — تجلى هذه العامية عن كثير من معاقلها، ولا يعدم الإنسان أن يجد الفصحى الآن تدب إلى الأسواق، والأكواخ والحقول أيضا، بشكل لم يكن معهودا قبل ربع قرن فقط. وقد بينت مذكرة جماعة دار العلوم التى سبقت الإشارة إليها هذه النقطة أوضح بيان.

وليس صحيحا أن التلاميذ يتفوقون فى اللغات الأجنبية أكثر من اللغة العربية، فمع ملاحظة ما تقدم من أن اللغة الفصحى هى أيضا أجنبية بالقياس إلى المصرى، فإننا نزيد أنها تلقى من مقاومة لغة البيت والشارع ولغة مدرسى غير

العربية ، مالا تلقاه الإنجليزية والفرنسية ، وهى مع ذلك أبين أثرا فى الطالب منهما ؛ وكل منصف يعلم أن طالب الشهادة الثانوية لايستطيع كتابة رسالة باللغة الإنجليزية ولا يحسن قراءة صحيفة إنجليزية ، وليس هو كذلك فى اللغة العربية . والدكتور العميد يعترف فى موضع آخر بأن الطلبة يدرسون لغتين أجنبيتين ، ولكنهم لا يستفيدون منهما شيئا . ومن قبل هذا قرر معالى نجيب الهلالى بك فى تقريره عن التعليم الثانوى ، أن الطلاب لا يعرفون من اللغات الأجنبية إلا مبادىء سطحية .

وقد تابع الدكتور طه بك فى هذا الموضوع ماجاء من قبل فى كتاب الدكتور حافظ عفيفى باشا « على هامش السياسة » . وكلاهما رسم صورة منكرة لدرس اللغة العربية فى المدارس الابتدائية والثانوية . فأما الدكتور عفيفى باشا فمع احترامنا له نقول : إنه انتزع صورته من أيام دراسته هو ، وله عذره فهو بعيد عن دائرة المدارس . وأما الدكتور طه بك فمع قربه من المدارس ، إلا أن له عذره أيضا ، فهو مشغول بالآداب جميعها ومشغول بالجامعة عن كل ماعداهما !

ويعقد الأستاذ العميد موازنة بين ثقافة الطلاب الأجانب فى لغاتهم وآدابها كما وجدهم فى فرنسا عند سفره للدراسة فى « السوربون » وثقافة الطالب المصرى فى لغته وآدابها ، حيث تنعدم كل أسس الموازنة ؛ ويمكن فى اختصار أن يقال : إن كل عوامل البيئة هناك مساعدة ، وكل عوامل البيئة هنا معاكسة وحسبنا هذا .

ويرى الدكتور أن من الجرم ألا يعرف الطلبة المصريون هنا شيئا عن هوميروس وبندار ، وهوارس ، وفرجيل ، ودانت ، وسرفنتس ، وجوت ، وفيكتور هوجو ، كما يعرف الطلبة الأجانب فى فرنسا .

وأنا مع الدكتور فى وجوب المعرفة بهؤلاء ، وفى إيجاد مترجمات لهم فيما يقرأ طلابنا كما قدمت . ولكنى أسأل الدكتور : ألم يسأل نفسه مرة كم يعرف الطلبة

الأجانب عن المتنبي ، والمعرى ، وابن الرومى ، والشريف الرضى من شعرائنا الأعلام ؟ بل كم يعرف الطلبة الفرنسيون مثلا عن : ملتن ، وجراى ، وكيتس ، ووردسورث من غير الفرنسيين ، ذلك أنه لفت نظرى فى الأسماء التى أوردها أنها جميعا من اللاتين ، الذين لا عجب ولا فضل للطالب الفرنسى إذا ألم بهم ، كما نلم نحن بشعراء العربية ...!

ثم لنعد إلى آراء الدكتور عن قضية اللغة العربية :

٣ — أن دار العلوم لا تصلح لتخريج مدرسى اللغة العربية ؛ لأن خريجها لا يعرفون لغة أجنبية ، ولم يتقنوا العربية والفارسية ، ولأنها لا تخضع فى برامجها ونظامها لديوان وزارة المعارف وسلطته المركزية ، ولأنها تجمع بين الدراسة العلمية ودراسة علوم التربية ، ولأنها لم تجدد شيئا فى نحو البصرة والكوفة ، بينما العلوم الطبيعية والرياضية تطورت وتحورت ، ولأنها لم تشترك فى خلق النهضة الأدبية ، ولم يكن منها أحد من المشهورين الذين يقودون الجيل فى السياسة أو الأدب أو الاجتماع ، ولأن وزارة المعارف دائبة الشكوى من ضعف اللغة العربية فى المدارس .

ويرتب على هذا كله نتيجته المنتظرة ، وهى أن خريجى كلية الآداب أصلح لهذه الدراسة لكل ماسبق ، ولأن من تخرجوا فى قسم اللغة العربية بها يدرسون الآن بالمدارس ، ويشهد لهم المفتشون من خريجى دار العلوم أنفسهم بالتفوق .

فلننظر فى جميع هذه الوجوه .

لا يحسب أحد أننا راضون كل الرضا عن ثقافة دار العلوم ، فلا ريب أن جهل المدرس باللغة الأجنبية يقص أجنحته عن التحليق ، وعن متابعة آخر البحوث العلمية والنفسية لتجديد نفسه ومعلوماته ، وإنما يخفف من حدة هذه

الحقيقة كثرة المترجمات الآن ، وهى تسمح ـ إلى حد ما ـ بتتابع التطورات الفكرية فى العالم .

ولا ريب كذلك أن دراسة الأدب ناقصة فى هذه المدرسة ، ومثلها دراسة التربية وعلم النفس .

وأنا على ثقة أن تصريحاتى هذه ستغضب الكثيرين من إخوانى وأساتذتى ورؤسائى على السواء . ولكن لابد منها ، فقد سبق لى أن صرحت بها، وأنا طالب فى المدرسة منذ ست سنوات ، وقد قدمت بها اقتراحات ضمنتها برامج كاملة للدراسة بالمدرسة ، إلى صاحب العزة ناظرها ، واقترحت أن تكون للمدرسة تجهيزية خاصة ، تدرس بها اللغة الإنجليزية منذ أول سنة ، وتتوسع فى دراسة اللغة العربية وعلوم الدين ، فتهيء بذلك للقسم العالى ، على أن تستمر دراسة الإنجليزية فى هذا القسم . ويتوسع فى دراسة اللغة العبرية ، وفى علوم التربية، ويخلق درس النقد الفنى بجانب تاريخ أدب اللغة الذى يدرس الآن، وتزاد سنو الدراسة بالقسم العالى إلى ست سنوات ، تنتهى بتقديم رسالة ، ويستقل مجلس إدارتها بتسيير نظامها .

هذه كانت مقترحاتى . ولا زلت مصرًّا عليها ، وهى تتفق مع الملاحظات الثلاث الأولى للدكتور . والحق حق من أية جهة جاء .

ولكن هذا شيء ، والنتائج التى يرتبها الدكتور شيء آخر . فإن هذا المدرس الناقص لايزال حتى اليوم أصلح من تخرجهم المعاهد كلها للتدريس بالمدارس العامة ؛ وذلك لأمر واحد بسيط ، هو أنه خير من درس اللغة العربية دراسة منظمة صحيحة فى المستوى المطلوب .

ولو أن طالب قسم اللغة العربية بكلية الآداب يدرس على هذا النسق ، بجانب مايتوفر له من لغة أجنبية ، لكان بلا شك أصلح . ولكن للجو المدرسى وللتقاليد المدرسية قيمة فى هذا النحو من الدراسة ، لاأحسب الدكتور يغفلها

بينه وبين نفسه. وهو يعلم تلك الحقيقة الواضحة التى صرح بها ذات يوم الدكتور منصور بك فهمى — أحد عمداء كلية الآداب — وهى أن طلبة الكلية لا يدرسون اللغة العربية، ولكنهم — على أكثر تقدير — يتثقفون ثقافة عربية؛ وفرق بين التعبيرين، كما لابد أن يعلم الدكتور.

ولانريد نحن أن نتابع بعض الخبثاء الذين يقولون: إن الدكتور العميد إنما يكره تدريس النحو فى المدارس لهذه العلة نفسها!

أما الثقافات الأدبية وتفوق طلبة كلية الآداب فيها، فليسمح لى الدكتور أن أصارحه بحقيقة وقعت لى: لقد كنت وأنا طالب، شديد الحنق على دار العلوم، شديد النقمة على تقصيرها فى حق الثقافات الأدبية، وكنت أتخيل أن هناك على الضفة الأخرى للنيل، وفى مدرجات الجامعة عالما آخر من الثقافة الواسعة، وكان هذا التخيل يزيد نقمتى على المدرسة التى لا تلبى كل حاجة نفسى ومضت أيام، واختلطت بأبناء الضفة الأخرى، وقرأت مايكتبون، فالحق أقول لك يادكتور: لقد علمت أننى ظالم لنفسى ولمعهدى وقد هدأت ثورتى وزالت حدتها، وتيقنت يوم ذاك أن أبناء الضفة اليسرى وأبناء الضفة اليمنى للنيل، لايفترقون كثيرا إلا فى الظواهر والقشور!

ولقد شاء الدكتور أن يسجل لخريجى الآداب اعترافا من المفتشين، فأحب أن أرجو الدكتور فى مراجعة هذه المسألة، فلعل هؤلاء الخريجين خجلوا منه فغيروا له وجه الحقيقة! وأحب أن أذكر له مثلين اثنين. أولهما واحد من هؤلاء عين فى مدرسة ثانوية مدرسا للغة العربية، وزاره أحد حضرات المفتشين فاقترح أن ينقل إلى المدارس الابتدائية، فنفذ عميد كلية الاداب الاقتراح بصورة أخرى، وهى إرسال هذا المدرس فى بعثة من بعثات الجامعة لدراسة اللغة السريانية!.

وثانيهما مدرس كذلك من هؤلاء كان فى الجمعية الخيرية الإسلامية الابتدائية

فزاره مفتش كذلك ، واقترح عدم صلاحيته للتدريس بالمدارس الابتدائية ، فنقله كذلك عميد كلية الاداب معيدا فى كلية الآداب !

يجب يادكتور أن تبقى دار العلوم ، وأن تطالب لها كما نطالب بالإصلاح والاستقلال ؛ فتنهض بمهمتها فى المستقبل كما نهضت بها فى الماضى لمصلحة الجميع . . .

وأما الجمع بين الدراسة العلمية ودراسة التربية فلننظر رأى الدكتور فيه : فهو فى ص ٣٤٨ من الكتاب يستنكر الجمع بين الدراستين . وفى ص ٣٦٧ يرى أن يدرس طلبة كليتى الآداب والعلوم فى الكليتين وفى معهد التربية ابتداء من السنة الثالثة ويجمعوا بين الدراستين . وفى ص ٣٩٧ يعود إلى تحريم هذا الجمع فى دار العلوم وفى مدرسة المعلمين العليا الملغاة . وفى ص ٤٣١ يعود إلى تحليله فى كلية الآداب ومعهد التربية.

فأنت ترى من هذا أنه حيثما كان هذا الجمع بين الدراستين فى دار العلوم فهو محرم أى تحريم ؛ ومتى كان فى كليه الآداب فهو محلل أى تحليل ؛ وليس بمثل هذا تساس شئون التعليم !

وأما أن دار العلوم تدرس نحو البصرة والكوفة ، ولا تجدد فيهما كما فى علوم الطبيعة فلست أدرى أن الدكتور يجد فى هذه الموازنة . . . أليس ثمة فارق بين علوم الطبيعة القائمة على المشاهدات والقوانين الطبيعية المجهولة التى تكشف يوما بعد يوم ، وبين العلوم اللسانية القائمة على أسس ثابتة لا تزيد ؟

وقد تألفت لجنة لإصلاح النحو بإرشاد الدكتور ، فهل تراها صنعت نحوا غير نحو البصرة والكوفة ؟ وقد اشتغل الدكتور أستاذا للدراسات العربية عشرين عاما، وسيطر على كثير من اللجان ، بل كثير من الوزارات ! فهل تراه صنع نحوا غير نحو البصرة والكوفة ؟ الحق أقول لك يادكتور : كان خيرا ألا نعرض لمثل هذا الحديث !

بقى أن دار العلوم لم تشترك فى خلق النهضة ولم يكن من خريجيها أحد من زعمائها ، وهذه مسألة وفاها الدكتور « زكى مبارك » حقها فى عدد الرسالة (٢٩٠) وبين فيها مجد الجندى المجهول ، الذى يعمل بين الكراسات والتلاميذ ، والذى لا يستمتع بمجد ، لأن صناعته بلا مجد ، والدكتور طه بك نفسه قد أسلف الحديث عن الظروف المنكرة التى تكفف نشاط المعلمين .

وما أريد أن أزعم أن هؤلاء المدرسين كانوا خليقين أن يصبحوا زعماء فى الأدب والسياسة والاجتماع ، لو لم تكن أمامهم هذه الأعباء ، أو لم يتفرغوا للأدب كما تفرغ له الزعماء الذين ذكرهم الدكتور ؛ فأنا لا أغالط ولا أداخل ولا أغش نفسى ونفوس القراء ، وأنا أعلم أن هؤلاء الزعماء الذين ذكرهم الدكتور : سعد زغلول ، ومحمد عبده ، والعقاد ، وهيكل ، ولطفى السيد ، والمازنى ، وأمثالهم ليسوا من صنع المدرسة ؛ ولكنهم من صنع الطبيعة ، ومن صنع أنفسهم ، ومن صنع القوى المذخورة فى ضمير الشعب كله ، فليس لمعهد أن يفاخر بهم دون معهد .

ومع أن هذا المقياس : مقياس التأليف والشهرة لا يصلح ، فنحن نوافق الدكتور عليه ، ونحاسب كلية الآداب به .

لقد بدأت كلية الآداب تخرج منذ عام ١٩٢٨ فى عهدها الجديد ، فلنعقد موازنة بين المشتركين فى النهضة الأدبية من خريجيها ومن خريجى دار العلوم منذ هذا العام : فى العدد ، وفى نوع الإنتاج . وقد كنت أريد نشر الأسماء ، لولا أننى لست فى مقام الإعلان ، ولكن قراء الصحف والكتب يعلمون .

على أن خريجى دار العلوم هم الذين تقوم عليهم كلية الآداب من جهة ، ويقوم عليهم الأزهر الجديد من جهة ، ثم يقوم على ما كتبوا وترجموا علم ناشىء فى مصر هو علم التربية وعلم النفس ، وإذا استثنينا كتاب التربية الحديثة للأستاذ المخزنجى ، وكتاب مشكلات التربية للأستاذ الحاكم ، وكتابين

للأستاذ قنديل ، وثلاثة كتب للأستاذ يعقوب فام - لم يبق فى المكتبات ، إلا مؤلفات هؤلاء الجنود المجهولين !

بقى أن وزارة المعارف دائبة الشكوى من دار العلوم فليتفضل الدكتور طه حسين بك بالرجوع إلى ما كتبه الأستاذ مؤلف «مستقبل الثقافة فى مصر» عن الكيد والتنازع الظاهر والباطن فى الديوان ، ليعرف علة هذه الشكوى ، وعلة هذا الإعلان !

☆ ☆ ☆

غرض التعليم العالى والبحث العلمى :

وهنا يخلص الدكتور مرة أخرى من هذه المشاكل الشائكة ، ومن الأغراض الموضعية ، فيعود إلى التحليق الذهنى ، وإلى الصفاء الروحى ، وإلى عذوبة العرض وجمال التصوير ؛ فيتحدث عن أغراض التعليم العالى ، ويستعرض الآراء المختلفة فيه : من رأى رجل الشارع ، إلى المثقفين الممتازين على اختلاف وجهاتهم ؛ ويرى أن رجل الشارع أقرب إلى معرفة الغرض من هذا التعليم حين يصوره بأن التعليم فيه تهذيب للعقل وإزالة للجهل ، وأن المثقفين الممتازين أجدر بالنجاح فى الحياة من الخاملين الجاهلين ، وبأن التعليم العالى يؤهل طلابه لشغل المناصب العالية الممتازة .

وليس كل الغرض منه إذن — كما يتصور المثقفون — البحث عن العلم للعلم ، ولا مجرد الإنتاج التطبيقى فى الحياة العملية . وإنما ينبغى أن يكون جامعا لهذين الغرضين . وعلى هذا الأساس الواضح يبنى الدكتور سياسة التعليم العالى بناء قويا . « فكليات الجامعة إذن تقصر أشنع التقصير فى ذات أنفسها وفى ذات الأمة إن هى لم تخرج من الشباب إلا رهبانا يعكفون فى مكاتبهم ومعاملهم على البحث الخالص ، كما أنها تقصر فى ذات أنفسها وفى العلم والمعرفة وفى

ذات الأمة ، إن هى لم تخرج من الشباب إلا طلاب المنافع والمضطربين فى كسب القوت . . . . » ويسرنى أن أذكر أننى سمعت هذا الرأى مرات فى مدرجات دار العلوم قبل سنة ١٩٣٢ من أساتذة التربية .

ويطلب الدكتور للدولة أن تفسح صدرها لخريجى الجامعة يشغلون من المناصب ما يناسب دراستهم ، ويطلب إليها وإلى الأمة والأفراد تشجيع البحث العلمى الخالص ومنح الجامعة ما تحتاج إليه من المعونة ، وينعى بحق على الأثرياء المصريين الذين لم يفكروا بعد فى هذا التشجيع الذى يشهد بحيوية الأمة . وإنما كانت أول هبة من يد كريم يونانى لتشجيع درس الحضارة اليونانية فى كلية الآداب وهو المسيو « ارستوفرون »

ويعود مرة أخرى لبيان تنظيم هذا التشجيع ، وتنظيم البحث العلمى نفسه فيقترح اقتراحا غاية فى الجودة ؛ وهو ضم جميع الهيئات العلمية المختلفة : « المجمع اللغوى العلمى المصرى ، والجمعية الجغرافية ، وجمعية فؤاد الأول للتشريع والاقتصاد ، وجمعية فؤاد الأول للحشرات ، ومعهد فؤاد الأول للأحياء المائية ، وجمعية الأطباء ، وجمعية المهندسين ، والمجمع المصرى للثقافة العلمية ، ولجنة التأليف والترجمة والنشر » وأن ينشأ من هذه جميعا « المجمع المصرى » على مثال المجمع الفرنسى « ويمنح ميزانيات هذه الجمعيات المتناثرة ، ويكون بذلك بيئة علمية راقية » وهو اقتراح نافع . مادامت قوائم الجامعة لم تشتد حتى الآن فى البحوث العلمية ، ومواردها محدودة لا تسمح لها بالتوسع .

مشاكل الجامعة وعلاجها :

ويتناول الدكتور حياة الطلبة الصحية والاجتماعية ، والبيئة الجامعية ، فيصور أسباب النقص فيها بكل تمهل ووضوح . ويصور الإهمال الصحى الذى ينخر فى أجسام الطلاب والإهمال الاجتماعى الذى يطيح بأخلاقهم ، والتفكك فى البيئة الجامعية الذى لا يحقق شيئا من الثقافة العامة . وهى لا تقتصر على التخصص

ى علم أو علوم ، والذى ينبغى ما يجب أن يتوفر للجامعى من الصفات الإنسانية الراقية ، والآداب المثالية العالية .

حتى إذا فرغ من بيان أوجه النقص فى هذا كله ، وبيان أوجه الطب لها جميعا ، بسط لك كذلك العوامل الهدامة التى تحول بينه وبين التنفيذ . . . هذه العوامل تتلخص فى تكتيف الجامعة بالنظام الحكومى المعقد ، وبالاعتداء على استقلالها العلمى بين الحين والحين .

وليس التضييق على الجامعة بمفسد فيها الصحة والاجتماع فحسب ، ولكنه يتناول شئونها التعليمية كلها ، ويتناول تقاليدها الجامعية كلها ، ويدخل السياسة بأهوائها إلى حرم الجامعة وحجراتها ، فازدحام الطلاب دون توفير ما يجب لهم من المعامل والأساتذة ، وإنجاح الطلاب بقوة القانون ، والعفو عن المذنبين منهم برغم أحكام التأديب . . . وكل شر وكل إفساد ، إنما يأتى الجامعة من تدخل السلطة التنفيذية فى أخص شئونها .

والحق مع الدكتور فى هذا كله ، وشكواه من تدخل السلطة التنفيذية فى التعليم وشئونه قد لا يحتاج لتعليق منا ولا بيان ، لأن الجميع يشاركونه الرأى فيه ، أما شكواه من تدخل وزارة المالية فهو الذى قد يحتاج إلى المؤازرة من كل مثقف ، لأن لهذا التدخل وجها ظاهريا من الحجة يجوز على كثيرين .

وزارة المالية فى مصر شأنها عجيب . فهى تبتلع اختصاصات الوزارات كلها ، وتكاد تشل عمل الوزارات كلها ، وتطيل الإجراءات وتعقدها فى الوزارات كلها ، بحجة أنها المسئولة عن مالية البلاد !

فهى لا تكتفى بالرجوع إليها فى النهاية عند تحديد ميزانية كل وزارة ، وبيان الدرجات والمصروفات والإيرادات فى كل وزارة ؛ ثم تدع للوزارات المختلفة أن تتصرف فى حدود ميزانياتها ، وتسيير أمورها فى يسر وسرعة كلها

رأت حاجة إلى ذلك . بل لابد أن ترجع إليها فى تفاصيل كثيرة كان يجب أن تستقل بها .

وهذا أثر من آثار الاحتلال لابد أن يمحى ؛ فقد كان المستشار المالى الإنجليزى يريد أن يركز السلطة فى يده ، وأن يعلم الإنجليز كل كبيرة وصغيرة تجرى فى الدولة كلها ، عن طريق وزارة المالية ؛ فكان هذا النظام المعقد المربك. والآن وقد استقلت البلد ، وأصبح كل وزير كـكل وزير ، وكل وزارة كـكل وزارة ـ يجب أن ترد الحرية للوزارات المختلفة ، فنعمل فى حدود ميزانياتها التى وافقت عليها المالية — وحسب هذه ضمانا بذلك — ونرد للآلة الحكومية يسرها ونشاطها وسرعة إجراءاتها ، بدل أن نزيدها عسرا وتعقيدا ، وإذا تم هذا فلن يشكو الدكتور طه بك من هذه الوجهة ولن يشكو سواه .

التعليم الدينى وضماناته

وفى خفة ورشاقة يتناول الدكتور حديث التعليم الدينى ، وما يجب لصاحبه من تنور الذهن ، وثقافة العقل ، حتى يستطيع التفاهم مع أبناء الوطن كله ، وحتى يستطيع إرشادهم إلى الطريق السوى بأيسر مجهود .

ويرى كما تقدم أن تشرف الدولة على مرحلة التعليم العام فى الأزهر ويصور بحق عقلية الأزهر فى هذه الأيام وهو ينافس الدولة بتخريج متعلمين منه كالذين تخرجهم ، ومنحهم إجازات كإجازاتها ، ومطالبته لهم بوظائف من وظائفها ، ويرى أن هذه مزاحمة ومنافسة وليست مشاركة ؛ لأن الدولة التى تمثلها وزارة المعارف لا تعلم شيئا عن ثقافة من يدفعهم الأزهر إليها دفعا ، ولم تشترك فى تكوين عقليتهم بما يضمن لها أنهم لن يكونوا سببا فى دفع العقلية العامة إلى الوراء .

ولا يقصر الحديث على رجال الدين الإسلامى بل يطالب بالثقافة وبإشراف الدولة كذلك على رجال الدين المسيحى ، لأن المسيحيين شركاؤنا فى الوطن ،

يجب أن نضمن أن رجال دينهم لا يرجعون بهم إلى الوراء ، ولا يلقونهم ثقافة تعارض ما يتلقونه فى المدارس العامة . ومن بين ما يطالب به ترجمة الكتاب المقدس ترجمة عربية صحيحة ، بعيدة عن الأخطاء .

ونحن معه فى ذلك كله معجبين بصراحته وقوة بيانه فى جلاء هذه المسائل الشائكة .

الأدب والترجمة والصحافة والمذياع والخيالة :

ويجتاز الدكتور بعد هذا دائرة المدرسة إلى إدارة المجتمع ، وإلى النشاط الحر الذى يضطرب فيه أبناء الوطن ، فيدعو دعوة جاهرة إلى الإكثار من الترجمة حتى تتصل بالثقافات الإنسانية .

ثم يصور فى براعة ، جهاد رجال الأدب الحديث الذين كانوا روادا عظاما لعصر جديد ، وما لاقوه فى هذا الجهاد الشاق من عنت الأيام ، وعنت الشعب ، وعنت التقاليد والقوانين ، وكل ما يحيط بهم ، وكيف تغلبوا على هذا كله ، ورفعوا رءوسهم شامخين .

وهنا لا يتمالك القارىء نفسه وهو يعجب بهؤلاء الرواد الأبطال الذين أعزوا الأدب واستعزوا به ، أن يرسل أشد اللعنات على قوم من الطفيليين عبثوا بهذا الجهاد كله ، وسخروا من هذا النصر كله ، فراحوا يمرغون الأدب فى الأوحال ، ويقفون بهذا الأدب على الموائد والأعتاب ، ويحرقونه قربانا خسيسا لذوى الجاه والسلطان ، ويسفون به فى المناسبات التافهة التى يفرح بها السوقة والعبيد .

ويرى الدكتور أننا بعد أن ظفرنا بالاستقلال لم ننهج نهجا جديدا فى النهضة الأدبية والعلمية والاجتماعية ، ولا نزال كما كنا قبل الاستقلال نسمع جعجعة ولا نرى طحنا ، ومع هذا نعيب الأدباء والعلماء بقلة الإنتاج .

والدكتور هنا مقتصد — على غير عادته — فى تصوير هذا العبث الذى نلج

فيه فأريد أن أسأل : أين الأحزاب المصرية ، وأين برامجها الجديدة ، وأين آراؤها فى مثا كلنا الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية ؟ إن لكل حزب فى أوربا التى نقلدها رأيا تفصيليا فى كل هذه المسائل ، ومن هنا تختلف سياسة كل حزب فى صبغ البلاد وصبغ المناهج الدراسية بخطته وغايته ، فيكون إذ ذاك معنى لاختلاف الجامعات فى طرائقها وعقلياتها . واختلاف الإنتاج الأدبى والفنى فى وجهته وقصده ، ويكون ذلك النشاط العقلى الخصب الذى يغمر البلاد الحية ... فمتى ياترى يكون لدينا أحزاب ؟

ثم يدرج الدكتور إلى الصحافة والخيالة والمذياع فيرى أن ظروف مصر الاجتماعية توجب تنظيم حريتها ، على ألا تكون إدارة المطبوعات أو إدارة الأمن العام هى التى تتولى ذلك . بل يوجب أن تنظم هيئات من المثقفين ثقافة عالية متنوعة للإشراف عليها ، وذلك حتى لا تغلو هذه الهيئات فى الحد من حريتها ، وحتى توجهها الوجهة الصالحة الأمينة على نهضة البلاد ومستقبلها .

ولا يقصر الدكتور فى إظهار عطفه على المسرح لأنه أداة راقية للثقافة فيجب أن نمنع عنه خطر مزاحمة الخيالة له ؛ لأنه أقرب منها إلى الفن الجميل ، وهو يجمع بين جمال المنظر وسحره ، وجمال الأدب وسحر الأسلوب فى الحوار .

كلمة ختامية

وقد حرصت على استعراض رأى الدكتور فى هذه الشئون كلها ، لأن هذا أدنى إلى توضيح ذلك العمل الشامل الذى قام به فى كتابه القيم ، وعلى حسن فهمه لعوامل الثقافة فى كل بيئة وكل مكان . وقليل منا من يربط هكذا بين وسائل الثقافة جميعا .

وفى النهاية أتوجه إلى الدكتور بإعجابى بذلك المجهود العنيف، وبذلك الدستور الجامع، الذى قدمه للدولة. ولعلها لا تكسل عن مراجعته ومناقشته. فهذا خليق أن يزج بعقليتها التعليمية إلى الأمام خطوات على هدى هذا النور الوهاج.

حلوان

سيد قطب

بين الحقيقة والخيال [1]

حول القومية فى الأدب العربى . دحض بعض مظالم لحقت به

للأستاذ عبد اللطيف المغربى المفتش بالمعارف

وفى يوم عطلة تاقت النفس إلى رحلة على متن النيل طلبا للراحة واستجماما للنشاط ، فركبت سفينة تتردد بركابها بين بعض المدن المطلة على نهر النيل ، وانتبذت فيها مكانا نعمت فيه بالهدوء وراحة البال ، وأشرفت منه على صفحة النهر الوضاءة : أرى مافيه من الإشراق والجمال ، واطراد الماء العذب يدفع بعضه بعضا ، ليسعف الوادى الخصيب بحاجته من السقيا غير وان ولا مقصر ، كأنما يضرب للناس المثل فى الوفاء — وأشاهد ماتخطه أنامل النسيم على وجه الماء من خطوط تضطرب أمام العين إلى غاياتها المنشودة فى خفة وحسن ، كأنها كتائب أمل مشرق يزجيها النسيم إلى أفئدة الظماء فتنعشهم ، أو سطور نور على صفحة النهر تمثل للناس أزكى مايحمله الماء من معانى الحياة والرجاء والقوة والخصب — وأردد الطرف بين شاطئيه فلا يقع إلا على حدائق مونقة وزروع ناضرة حاذت النهر وسايرته ، كأنها تظهر له على طول الطريق شكرها على ماجاء به من نعم ، وأسدى إليها من جميل .

ولقد سما بى هذا المنظر الساحر إلى آفاق من الجمال والروعة ملكت على فؤادى ، وأظفرتنى بمسرات روحية لاترى النفس مثلها إلا فى حلم أو خيال ؛ فقد كان كل شيء باسما ، وكأنما محا ماء النهر ماران على قلوب النفس من شواغل الحياة وهمومها فبدت النفوس صافية والقلوب منشرحة . وفى مثل هذا الوقت تسفر الطبيعة وتنجلى فى أروع مباهجها وتبوح بأسرارها حيث يلتقى نور الروح ونورها فيمتزجان .

---

(١) بقية ما نشر فى الأعداد السابقة .

وبينما أنا مغمور بهذا الصفاء إذا طائر غريد على سارية السفينة قد فتنته الطبيعة بجمالها فانطلق يصدح ويصوغ هذا الجمال نغما عذبا، ويبعثه على أجنحة النسيم كأنه فى انسجامه قصيد: معناه النهر وبهاؤه والطبيعة وألوانها، وقافيته خفقات النسيم المتلاصقة المنتظمة — فياله من شاعر أهدى إلى الفؤاد أجمل خلجات الأمانى ونوازع الأمل. وكنت حريا أن ألقى إلى هذا السحر الرائع بالا، وأفرغ له بنفسى وشعورى، وأستوعب ما أودعه الله فى هذا الصوت المطرب من جمال ومتعة.

فما راعنى إلا باز أقنى سريع الحركة قوى الوثبة، يهوى على هذا الطائر الوديع الشادى، فهالنى ما رأيت وخفق قلبى لذلك خفقة قوية، وتملكتنى سورة غضب عاتية، وتمثلت بهذا المنظر عدوان القوى على الضعيف بلا جريرة وفتكه به — وتلك البلية أشد مظالم الحياة وأحقها بالمقت — وإذا كان الإنسان الموهوب عقلا وخلقا ومدنية وعلما يرضاها ويتحفز ويفتن فى الاستعداد لها بكل ما يملك من حول وطول — فلا نكران على الطير سليب العلم والعقل.

وفى لحظة موانية وحركة موفقة تخلص الطائر الصغير وأسفّ قلقا جزوعا إلى مستوى سطح السفينة كأنه يستنجد بركابها من هول ما ألم به، والبازى يتبعه، فلوحت له بمنسأتى فولى هاربا مذعورا، وتعلق الطائر الصغير بحافة السفينة عن كثب منى، فحمدت الله لنجاته من هذا الظالم الآثم. وكنت أتعهده من وقت لآخر بالنظرة بعد النظرة؛ لأطمئن عليه وآنس برؤيته، فأجده لا يزال يطوقنى بنظره ذى البريق الخاطف، فتضطرب لذلك نفسى بعض الاضطراب، وكنت أحمل هذا على سروره بما قدمت له من معونة.

وما كان أشد دهشتى حين رأيته يدنو منى ويئد الخطا غير هياب ولا وجل، ثم ينتفض انتفاضة يتكشف بها عن صديقى العصفور فوثبت إليه مصافحا وعانقته، ودموعي ودموعه خير ترجمان على ما يكنه قلبانا من عوامل الود

والوفاء، وهنأته بنجاته من خطر داهم، فشكر لى صنيعى، وطفقنا نتنقل فى نواح من الحديث حتى عاد إليه نشاطه، ولمعت على أسارير وجهه علامات البشر والارتياح. فبدأنا حديث اللقاء:

— ١ —

أنا — كان لحديثك عن القومية التى يدعو إليها المجددون فى الأدب وقع حسن فى نفسى فهى بهذا المعنى الذى جلوته لاخطر منها على الأدب، وتكاد تكون صبغة لأدب كل بيئة فى عصور الأدب العربى الغابرة، فللأدب الحجازى ظرفه وعفته، وللأدب البغدادى العباسى مجونه وصراحته وللأدب الأندلسى دعابته وخلاعته، ولكل أدب طابعه الخاص مع ارتباط الآداب العربية جميعها بالذوق العربى العام وامتياحها من الينبوع العربى لغة وعرفا وثقافة فوق خصائص الأقليم الذى ينتسب إليه كل أدب.

فلست أرى للمجددين فى مذهبهم وضوحا ولا تحديدا، ولعل هذا من الأقوال المبهمة التى تلقاك برنين وقوة جرس ونخامة لفظ، فإذا عرضتها فى هوادة ورفق لم تجد وراءها شيئا جديرا بما قد أضعت فيه من وقت، ورصدت له من نظر. فهل فى القول بقية تزيد هذه الدعوة إيضاحا؟

العصفور — الحق ما رأيت ياصديقى. فإن هؤلاء المجددين يحومون حول معنى القومية دون أن يصوروها للناس واضحة، ويذكرون أمورا عامة مرنة لا تصلح أن تكون أساسا للحوار — ويذهب بعض المجددين مذهبا يكشف لنا عن ناحية القومية غير ما كنت حدثتك به عنها: فيرى أن نمصر أيضا عواطفنا وشعورنا فنصبغهما باللون المصرى الخالص، حتى يعرفا به كما يعرف كل أدب غربى بسماته الخاصة.

وصاحب هذا الرأى هو الأستاذ إبراهيم المصرى، وندعه يوضح لك رأيه إذ يقول:

« هناك العواطف البشرية التى يقوم عليها الأدب كفن، والتى قد تتشابه فى جوهرها الانسانى، ولكن هناك أيضا اختلاف مظاهرها وتفاعلاتها،

باختلاف أمزجة الأمم والشعوب . هنالك اللون الإحساسى الفكرى الذى نميز به أدبا عن أدب، ونعرف به روح أمة. وإذا كانت عبقرية الأدب الروسى تمتاز بالإنسانية العميقة والرحمة الواسعة، وعبقرية الأدب الفرنسى بالموضوع والمنطق والتوازن ودقة التحليل، وعبقرية الأدب الألمانى بسعة الخيال واتقاد العاطفة والصوفية الفلسفية. فيجب أن تكون هناك عبقرية أدب مصرى لها طابعها الخاص فى النظرة إلى الحياة والتعبير عنها. فنحن إذا لم نصور الفرد المصرى ونحلله لم نعرف عاطفته، ولم نستطع بالتالى أن نفهم كيف يستقبل وجدانه مختلف شؤون الحياة، وكيف يتصرف حيالها، وكيف يعالجها ويفكر فيها»

أنا : وهذا أيضا لا نعارضهم فيه ولا ضير منه على العربية، ولعلك ياصديقى توافقنى على أن كل إنسان حر فى التفكير ورياضة إحساسه على الطريقة التى يرتضيها. ولكنى أخشى أن تكون الدعوة إلى القومية فى الأدب طريقا إلى شىء آخر يضير العربية، فهل أنت ذاكر لى شيئا عن نشأة هذه الفكرة وتدرجها؟ وموقف الكتاب ورجال الأدب منها؟

العصفور — من نحو نصف قرن مضى كانت الأفكار قد نشطت والهمم فى طريقها إلى تجديد مجد مصر ونهضتها على أسس قوية من العلم والفن والصناعة، بما يبثه رجال الاصلاح وزعماء النهوض المتعاقبين — نضر الله وجوههم! وكان من ثمرات هذه الحركة شعور الأمة بمكانتها، وأنها ذات كيان يجب أن نعمل لصونه. فنما فى النفوس حب الاعتزاز بالمصرية والدعوة إلى مايحقق القومية فى كل نواحى الاقتصاد والصناعة والفن لافى الأدب وحده. وكان من أوائل الدعاة إلى ذلك صاحب السعادة أحمد لطفى السيد باشا. ونورد عنه هنا نبذة صغيرة ذكرتها السياسة الاسبوعية حيث قالت « تراه فتحسبه من الطبقة العثمانية القديمة مع أنه أول من حمل على الروح العثمانية فى مصر منذ عشرات السنين، وأول من قال باستقلال الروح المصرية عنها، وأول من احتمل الأذى والنقد الشديد من

أجل هذه الدعوة القومية المصرية أيام أن كان جهد الفخر عند المصريين أن يكونوا عثمانيين » وهذه الكلمة تلقى وضحا عظيما على جانب كبير من نشأة القومية المصرية . وكان من الكتاب الناشئين المرحوم محمد تيمور الذى يدعو إلى القومية المصرية فى الأدب بحماسة عظيمة ، وقد غذى المسرح المصرى بكثير من الروايات، وخلفه أخوه الأستاذ محمود تيمور الكاتب القصصى المعروف. ولقد صادفت هذه النزعة هوى فى النفوس منذ الدعوة إليها فسارت فى طريقها أول الأمر وانية تصطدم بعقبات حينا فتقف ، وتتغلب حينا عليها فتندفع فى طريقها إلى غايتها المرجوة .

وكان من ثمار الحرب العالمية الكبرى أن تطلعت مصر إلى حريتها ، وفاضت صدور أبنائها بالأمل العظيم ، واضطرمت نار الحماسة فى قلوبهم فناضلوا نضالا هائلا، علمهم كيف يكون الاعتماد على النفس والغضب للكرامة والاعتزاز بالقومية، فنشطت الدعوة إليها ، وتناولتها فى صور مختلفة ، وكان مصير الأدب رهنا بأن يمسه شىء من هذه الدعوة فكان ماقصصته عليك من أمرها فى موقفنا السابق .

أما الكتاب ورجال الأدب فمنهم من التزم جانب الصمت وطلب العافية، فلم يشرع له قلما فى هذه السبيل ، ومنهم من ركب هواه فتشيع لها وناصرها بقوة ، ومنهم من أوجس فى نفسه خيفة فعارضها — وإنى لسائق إليك بعض أقوال المعارضين حتى تقدر بنفسك مايجول فى صدور هؤلاء من الخوف على اللغة من هذه النزعة ، ومايختلج فى أفئدتهم من أمور . ونبدأ بقول أمير الشعراء المرحوم شوقى بك ، قال :

« وأولئك الذين يطالبون أدبا مصريا غير شائع فى العالم العربى ، ولا يستوحى الأدب العربى القديم : إما أن يخلقوا لمصر لغة أخرى يسخرونها ويعبثون بها كما يشاءون ، وإما أن يستوحوا للأدب المصرى المزعوم لغة من لغات

الغرب . ولن يكون هذا الأدب يومئذ إلا علما مزيفا على مسمى، لا فضل لهم فيه إلا فضل الترجمة عن قوم يتكلمون بغير لساننا، ويعيشون في غير جونا، ويظلهم من النظم والعادات والأخلاق مالا يظلنا — وإما أن يقفوا عن استيحاء الماضى العربى والحاضر الغربى ، ويكون مثلهم حينئذ كمشلول الذاكرة حيل بينه وبين الماضى ، والماضى أطول من الحاضر وأحفل ، وهو أفسح مجالا لخيال الأدباء والشعراء .

ومن بين آداب العالم كلها لم أسمع بأدب تنكر حاضره لماضيه ، واستطاع أن ينهض على ساق . إن الأدب المصرى والأدب البغدادى والأدب الأندلسى والأدب الأموى والأدب العباسى ، ليست كلها الا نعوتا لزمان الشاعر العربى أو مكانه ، يمدها الوحى العربى كلها ولا يختلف بعضها عن بعض إلا فى ظروف العصر والمكان » .

واستمع إلى غضبة الدكتور على العنانى على المجددين الداعين إلى القومية فى الأدب ، إذ يقول :

« تصدر فى مصر فريق غير ناضج فى الثقافة العامة ، مدعيا معرفة كل شىء، وناصبا نفسه إلى الإرشاد فى كل شىء ، أو بعبارة عامة إلى القيادة الفكرية ، ولا يتورع هذا الفريق — مع الأسف الشديد — عن التعرض لما لا يعرف، ويقرر حكمه فيه . والأمثلة على ذلك كثيرة جدا نذكر من بينها تلك الدعوة العجيبة إلى اشتغال الشباب المصرى بأدب قومى مصرى، وما يتبع ذلك من إهمال جانب الأدب العربى العام — وبربك خبرنى أين هذا الأدب القومى المصرى ؟ أهو أدب الفراعنة ؟ أم أدب العرب المصريين ؟ وفى أى لغة على كل حال قد دون هذا الأدب ؟ أفى اللغة الهيروغليفية ؟ أم فى لغة مصرية أخرى موهومة ؟ أم فى لغة العرب ؟

وإذا كان هذا الأدب القومى المصرى مدونا فى لغة العرب فأدب هذه اللغة

هو أدب اللغة العربية العام منذ نهضتها الجاهلية الأولى حتى الآن ، وغاية الأمر أن مصر لها ذوق خاص فيه كما لسوريا وفلسطين والعراق واليمن ونجد والحجاز وبلاد أفريقية الشمالية وأقطار الأندلس — من الأذواق الأدبية المختلفة، وكل واحد منها متوقف طبعا فى فهمه واستساغته على فهم الأذواق العربية الأدبية الأخرى فى جميع أقطارها المترامية ، وبالجملة فهذه الفكرة الزائفة، والدعوة الهوجاء إليها ، مع ما فيها من قول خلاب ونزعة وطنية ظاهرية براقة ، ليس فيها سوى إغراء الشباب ضد الحضارة العربية والتضليل به فى هذا السبيل » .

وهذا الأستاذ صاحب المعرفة يقول « قامت منذ سنوات معدودات فئة تدعو إلى تمصير الأدب العربى ، أو خلق أدب قومى ، فصفق لها جماعة من المتأدبين ، وهلل لها جمهرة من الشباب المتحمسين ، ولا ضير فى هذا كله ماداموا للعربية حافظين — لكن إلى جانب هذه الفئة فئة أخرى تدعو إلى خلق أدب مصرى خالص لا يمت إلى الأدب العربى بصلة ولا يرتبط والعروبة بوشيجة أو نسب .

وقد أخذت هذه الفئة الثانية تروج لدعوتها بكل ما فيها من قوة وحماسة ، واستغلت أكثر مما استغلت الأولى روح الشباب المتوثب ، وتغنيه بمآثر أجداده القدماء ، وترداده لكلمات الوطن والوطنية ومصر والمصرية ، وما إلى هذه من أسماء ومسميات — ونود الآن أن نقرر لأصحاب هذه الفكرة الجديدة — فكرة الأدب المصرى الخالص — أن فكرتهم على مابها من جدة لا تقوم على أساس علمى صحيح ، فهذا الأدب المصرى الخالص الذى ينادى به أشياعه ليس إلا أدبا زائفا لا يعتمد على نفسه ، وإنما يعتمد على غيره من الآداب . وما من شك فى أن الأدب المصرى فى لحمته وسداه ليس إلا الأدب العربى مهذبا . والتفكير العربى ممصرا . فإن أبى أصحاب الدعوة إلا الإنكار ، فليدلونا على اللغة القومية التى بها يكتبون ، فإن كانت الهيروغليفية أو القبطية أو

العامية المصرية — وهذه هى اللغات المصرية — سلمنا لهم بما يدعون . أما إن كانوا يسجلون خواطرهم ويرسمون أحاسيسهم بغير لغة من تلك اللغات، فذلك هو المنطق المعكوس بعينه ، والشيء الذى لا يصح فى الأذهان . وإنما الذى يستقيم والمنطق : هو أن لنا أدبا عربيا مصريا : عربيا من حيث اللغة والإنشاء ، مصريا من حيث التفكير والأسلوب » .

— ٢ —

فترى مما قصصته عليك مقدار المعارضة لهذه الفكرة من بعض الأدباء والمفكرين . ومن بيانهم وأدلتهم التى ساقوها فى اتزان واعتدال حينا ، وثورة وغضب حينا آخر — تقدر منزلة هذه النزعة من الحق . فإن الدعاة إلى هذه الفكرة إما أن يتخذوا لهذا الأدب لغة موضعية أخرى غير العربية من اللغات التى مرت بك ، وهذه اللغة لا تحقق الفكرة أيضا لقصور هذه اللغة عن البيان والثروة الفكرية فى اللغة العربية ، ولن يقوم أدب حديث على غير سالف له من أدب قديم ، ولا صلة ماضية متينة تستند إليها دعائم هذا الأدب ، وتستمد منها أسباب القوة والاستقرار كما يقول أمير الشعراء « ومن بين آداب العالم كلها لم أسمع بأدب تنكر حاضره لماضيه ، واستطاع أن ينهض على ساق » . وإما أن يستوحوا لهذا الأدب لغة أخرى غربية ، وحينئذ يكون هذا الأدب المزعوم صورة ممسوخة وهى التى وصفها أمير الشعراء بقوله « ولن يكون هذا الأدب يومئذ إلا علما مزيفا على مسمى لا فضل لهم فيه إلا فضل الترجمة عن قوم يتكلمون بغير لساننا ويعيشون فى جو غير جونا ، ويظلهم من النظم والعادات والأخلاق ما لا يظلنا » .

وإما أن يصدفوا فى الأدب القومى المزعوم عن الماضى العربى والحاضر الغربى فيكون أدبهم أعجف خاويا من رسائل القوة والخصب ، وينقطع عنه الغذاء الصالح حتى يموت ، لأن أهله فى هذا الموقف يكونون كما صورهم أمير الشعراء

بقوله « ويكون مثلهم حينئذ كمشلول الذاكرة حيل بينه وبين الماضى » .

ولعلك ياصديقى بعد أن سمعت أقوال هؤلاء المعارضين ترى أن فكرة القومية التى يقصدها المجددون غير واضحة المعالم ، ولا محدودة الغرض، فهى لا تزال تضطرب فى كثير من الإبهام والغموض، ولهذا تلمس الحيرة فى فهمها شائعة فى أقوال المعارضين، فتناولوها فى عموم شامل ، وعارضوها على أنها فكرة مطلقة تحمل معها الخطر على العربية ، ولم يعرضوا لها فى شيء من التفصيل يلقى ضوءا على الغرض منها ، وما حدثتك به عنها فى المقال السابق يبدو أوضح الأغراض من هذه الفكرة وأقربها إلى العقل والقصد فى التجديد الحسن — وهذا القدر الذى أوضحناه متحقق فى الأدب العربى قوة وضعفا فى كل بيئة حل بها ، ولا بد لكل أدب أن يكون صورة لزمانه ومكانه إلى حد ما ، ولا بد له أيضاأن يجاوز حدود الإقليمية حتى يضرب فى عالمية الأدب بسبب، ويمت اليها بنسب — وأدبنا العربى على الرغم من حملات المجددين عليه واتهامه بالقصور عن مسايرة روح العصر ، وأن ذوقه لايزال عباسيا لامصريا — يتبع فى نهوضه السنن المألوف الذى يوائم طبيعته وروحه ، ويظفر من أساليب الابتكار والتجديد بالقدر الذى يجود به الزمان، وتسمح بقبوله الأذواق العامة ، والطفرة به ضرب من المحال، وتمرد على النواميس الطبيعية .

ونظرة يسيرة إلى حال الأدب الآن وحاله منذ نصف قرن تريك قدر النهوض السريع العظيم فيه .

ثم مابال هؤلاء المجددين يصخبون ويضجون فى غير هوادة ولا رفق ، ويصلون ليلهم بنهارهم فى النقد والتهكم والسخرية من الأدب العربى ورجاله .

ولا يطلعون على الناس بمذهبهم الجديد من صياغة مبتكرة وذوق مصرى محض، وقومية إقليمية ، وأسلوب طريف بجانب الصناعة ،ويخالف أسلوب ابن المقفع والجاحظ والحريرى والهمذانى كما يقولون ؟

وإن هذا ياقوم هو المنطق المعقول، وطريق الإقناع والهداية إلى ما تريدون. أخرجوا للناس نماذج مما تدعون إليه من الأدب الحديث قبل أن تقضوا على الأدب القديم، وأنتم الذين كرعتم من الآداب اللاتينية القديمة والغربية الحديثة، ونصبتم للناس موازين الحكم بين الآداب العالمية كما تزعمون. هذه دعوة صادقة يطرب لها كل عاقل، ويقرنا عليها الحق والمنطق، وقد انصفتكم بها فاستجيبوا لها إن كنتم فى دعوتكم جادين، وإلا فقد عرف الناس أنكم لاهون هازلون، وكنتم إذ تقضون على القديم ولا تقيمون حديثا مكانه كمن حمل معولا وهوى على بيته هدما وتخريبا، ثم جلس على أنقاضه صاخبا باكيا كما تصخب البوم والغربان على الأطلال البالية والرسوم الدارسة.

أنا - رعاك الله وأدام توفيقك ياصديقى العصفور! فلقد أحكمت القول فى نشأة القومية وتدرجها وأرضيتنى بما سقت من آراء المعارضين لها، وأخذت بزمام الحق فى دعوتك المجددين إلى إعلان مذهبهم حتى يتضح للناس صدق فكرتهم وحقيقتها، وهذا حق لا ينازعك فيه منازع، وما كنت أظن أن يبلغ علمكم يامعشر الطير بأدبنا وظواهره ماقد رأيت اليوم: من سعة اطلاع، وعظيم إحاطة، وإتقان رصد، وصدق نظر. وإنى لمعجب بك شاكر لك.

العصفور: الحق أن هذه الدعوة لا تبعث فى النفس الاطمئنان على العربية، وقد يكون فى طيها غرض آخر لبعض المجددين لم تفصح عنه الأيام بعد — ومهما يكن من شىء فلا بد لنا من الاعتصام فى هذا الموقف المبهم بحسن النية، حتى يظهر لنا خلافه، فذلك أولى بمن يسلك سبيل النزاهة فى البحث. وعلينا تلقاء حسن الظن الذى تلوذ به أن نغض الطرف عما تبعثه أقوال المعارضين السابقة فى النفس من التشكيك فى أمر هذه الدعوة والتحذير منها، كما نعجب العجب كله من انقباض هؤلاء المجددين عن الثقافة العربية، وإقبالهم كل الإقبال على مظاهر الثقافة الأوربية والهيام بها، ومنطق العدل يتقاضاهم أن يصدوا عن كل ثقافة غير مصرية أو

يساووا بين الثقافات جميعا، وإنى لمقتنع بأن الدعوة إلى القومية فى الأدب مظلمة صبتها الأيام على الأدب العربى ، وكم لها من مظالم رمته بها فتلقاها صابرا محتسبا، ومضى فى سبيله يقارع الدهر ويغالب الأيام بما كتب له من خلود .

أنا — تطربنى معدلتك فى البحث، وعلاجك الأمور بحكمة وروية، واعتصامك بالخلق السرى ، فلا تميل إلى هوى، ولا تطوى عن الناس أمرا وتبسط لهم أمرا: ليستقيم لك ماتريد ، وهذا أسمى مايتطلبه الحق الذى تجنح إليه النفس الفاضلة ، وتلك إحدى مكارمكم يامعشر الطير . كنت أود أن ينسج على غرارها عندنا بعض النقاد الذين يتناولون الأدب على أنه سلعة ترتفع قيمتها وتنخفض فى فى سوق الهوى ؛ تبعا لما ينالهم من ربح خسارة ، ولقد أيقظت فى نفسى حب الاستماع إلى بعض تلك المظالم التى لصقت بالأدب العربى ، فهل لك أن تقفنى على شىء منها فأكون شاكرا .

— ٣ —

العصفور : إنه ليسرنى أن أسوق إليك بعض صور من هذه المظالم غير مظلمة القومية فى الأدب التى فرغنا منها — فمن هذه المظالم مظلمة جديدة وليدة سنوات مضت وهى « أن الشعر العربى غنائى » ويقصد القائلون بذلك أن الشاعر فيه يتغنى بما يمس وجدانه وحده، وينبعث عن شعوره وأمانيه وأحلامه الخاصة فى أسلوب موسيقى هزاز ساحر ، فهو غريق فى الفردية ، بعيد عن إحساس الجماعات وتصوير المثل العليا لها فى الحياة ، وتحليل ماتضطرب به دنياها من حقائق وتجارب وفلسفة ومعان سامية تتصل بكل نفس ، ويهش لها كل فؤاد .

وقد سرى بين كثير من الأدباء هذا الرأى وتصايحوا به ، ولجوا فى إشاعته بين الناس، كأنه نصر جديد فى الأدب ، ولم يكلفوا أنفسهم عناء التفكير فى صحة هذا الحكم ، فهذا كاتب مصرى يقول « لذلك جاء الشعر العربى شعرا غنائيا بوجه

عام ، شعرا يعبر عن شعور الشاعر نفسه ، ويصور مايحيط به تصويرا صادقا بديعا ، فهو شعر يغذى الإحساس والشعور السطحى،ولكنه يعجز تماما عن تغذية الروح » . وهذا الرأى قد رآه من قبل الأستاذ «جيب» مدرس اللغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية بلندن ، ولعل رأيه هو مبعث هذه الفكرة لدى أدبائنا المجددين . ونورد رأيه هنا مأخوذا من مقال للأستاذ محمد على المحامى . قال « من أهم مميزات الأدب العربى والفارسى أنه عاطفى (Romantic) وأن الطالب الذى نشأ على حب المثل اليونانية فى الأدب لن يجد فى أدب العرب والفرس تلك الصفات التى امتاز بها أدب اليونان ،والتى هى السر فى قوته الساحرة الباقية على مدى الزمان ، وبرغم مافيه من قوة الصياغة فإن فيه جمودا ،وفى أدب اليونان تنوع ، وفيه إغراق ومبالغة ، وفى أدب اليونان شدة واتزان — وقد بلغ الكتاب اليونان واللاتين مابلغوه من العظمة بتوخى السذاجة والسهولة ، وعدم الاندفاع — على حين أن الكاتب الشرقى ينسج آياته فيملؤها بالبديع الغامض من اللفظ ، ويلتمس لها الاستعارات والكنايات البديعة الخلابة ، واليونانى يؤثر فى الفكر بوساطة الجمال الخالص ، أما العربى أو الفارسى فيؤثر فى الحاسة وفى الخيال بما يأتى من الألوان الساحرة » .

فالأستاذ «جيب» فى كلمته هذه يرى أن الأدب العربى عاطفى أو غنائى، وأنه يخالف الأدب اليونانى فى أمور منها : أن الأدب العربى فيه جمود ومبالغة، واليونانى فيه اتزان وقوة وتنوع ، والأدب العربى يعتمد فيه الكاتب أو الشاعر على قوة الصياغة والتأثير بالالتجاء إلى الإكثار من البديع الغامض والاستعارات والكنايات البديعة ، واليونانى يعتمد على السذاجة والسهولة وعدم الاندفاع ، والعربى يؤثر فى الحاسة والخيال بما يأتى من الألوان الساحرة ، واليونانى أو اللاتينى يؤثر فى الفكر بوساطة الجمال الخالص .

والحق أن الأدب العربى ليس غنائيا أو عاطفيا فقط كما يقول الأستاذ

« جيب » والمجد دون الذين يرون هذا الرأى. فقد عرض أدبنا النواح أخر كثيرة غير العاطفة، وترفع عن الفردية المطلقة التى يرمونه بها إلى أسمى آفات الحكم والزهد وتهذيب الخلق ونصرة الفضيلة وآداب السلوك.

ولولا خلال سنها الشعر مادرى بناة العلا من أين تؤتى المكارم

وعرض لوصف الطبيعة وأسبغ عليها من ضروب التشبيه والإبداع مايعد مفخرة له بين الآداب العالمية، لنفوذ بصيرة شعرائه وكتابه إلى أسرارها، ولا نظن أحدا من أدباء الغرب يفوقهم فى هذه الناحية — وقام بما يرجى منه فى النضال الحزبى بين الطوائف الدينية والسياسية، وكرع من الفلسفة ماشاءت له طبيعته، ووصف المعارك والجيوش والأساطيل وغيرها بأسمى مايتطلبه العقل البشرى، فكيف يصح وصفه بأنه غنائى أو عاطفى فقط، والتغاضى عن المعانى العالمية، والأفكار الاجتماعية التى تعلو على الفردية وتتصل بحياة الجماعات اتصالا وثيقا، فتنير لها سبل الحياة العملية والروحية، وتضع بين أيديها كثيرا من نظم الهداية وآداب السلوك. والأدب العربى فياض بمثل هذه المعانى العالمية ولعل كثرتها فيه من خصائصه الواضحة لكل من سبر غوره، وتعرف إليه فى نصفة وتحفظ، ولولا أنّ تعرضنا لذكر أمثلة مختلفة لما مضى يند بنا عن الغرض الذى نرجو بيانه فى هذه العجالة، لحشدنا طوائف من الأدب العربى تؤيد مانقول. والذى يزهدنا فى ذلك قربها من متناول اليد والعين فى مصادر الأدب العربى الكثيرة. على أن الذى يدهشنى حقا إنكار العاطفة على الأدب العربى وهى أساس كل فن — وخاصة الأدب — وروح النبوغ فيه والسمو به فهل يظن المجددون والأستاذ «جيب» أن هناك أدبا يخلو من العاطفه فى الآداب العالمية كلها، ويعد نفسه لوصف حياة الجماعات من علاج مصاعبها وحل المعقد من أمورها، ووضع المثل العليا لاسعادها؟ إن مثل هذا الأدب لحرى أن

يوصف بأنه مجموع قوانين تعتمد على العقل والمنطق ، لا على الوجدان والخيال .

وليس عيبا اعتماد العربى على ضروب الزخرف المعقولة من استعارة وكناية وتشبيه وبديع ، لينال بها مواقع التأثير من سامعيه ، فلكل لغة ثروتها من هذا الزخرف ، وحظ اللغات منه يختلف قوة وضعفا ، والعربية أوفى نصيبا من غيرها فى هذا ، إذ ، كانت أوفر اللغات مادة ، وأغزرها ثورة ، فليس محظورا على أبنائها أن يحلوا بيانهم بما شاءوا من هذا الطراز الفاخر المجيد .

ولا أريد هنا أن أدعو إلى الأخذ بالصناعة والإسراف فيها كما فعل بعض متقدمى المولدين كأبى تمام ومسلم ، وأدباء عصور الضعف الأخيرة ، فهذا أمر أطبق رجال النقد على إنكاره ومجافاته للذوق السليم ، والفطرة العربية الصادقة . وليس من حق الذين يرمون العربية بالإغراق فى الصناعة أن ينظروا إلى أمثال هؤلاء ويجعلوا تراثهم أساسا للحكم على العربية بالإكثار من الصناعة ، ثم يهملوا عصور القوة والإشراق التى كانت اللغة تتجلى فيها بصناعة مقبولة ، تزيدها قوة على قوة ، فإن هذا ليس من الإنصاف فى شىء .

ومن ذا الذى يشاء أن ينكر على العربية التحلى الصناعى ، الذى يجرى على قدر تألفه النفوس وترتاح إليه الأسماع ؟ إن الغانية قد تغنى بجمالها عن الحلية ، ولكنها إذا ازينت بها أضافت إلى جمالها جمالا . وهذا باب يحسن ألا ندعه حتى نضرب بعض أمثلة تقرب قصيه وتوضح خفيه . انظر إلى قول ابن سفر الأندلسى يصف المد والجزر فى نهر :

شق النسيم عليه جيب قميصه فانساب من شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام لأجله هزؤا فضم من الحياء إزاره

فهل رأيت حسن تعليل لظاهرة المد والجزء أبدع من هذا ؟ ولولا هذا الخيال الرائع ما بدت الحقيقة مؤثرة كما ترى — وكان فى الامكان أن يرد الشاعر

الحقيقة إلى السذاجة والفطرة فيقول : طغى ماء النهر على شاطئيه بتأثير المد والجزر، ورجع إلى أصله حين زالت الدواعى ، ولكن أين تقع هذه الصورة الهزيلة المقفرة من روح الخيال وحسن التعليل ، من الصورة الأولى الرائعة ؟ أبمثل هذا يعيبون علينا أدبنا ؟ اللهم إنى بمثل هذه الصناعة من المعجبين ، فزدنى بها علما .

إن الصناعة فى ذاتها ليست معيبة بل هى من أسباب الروعة والجمال الفنى ، وهى فى يد الشاعر أو الكاتب الموهوب مبعث فتنة ومطلع إشراق ، وملتقى ألوان ساحرة يؤثر بها صاحبها فى الحاسة والخيال كما يقول الأستاذ «جيب» ولا عاب علينا فى ذلك مادامت قوة الشاعر أوالكاتب تصرفها فى آفاق من الإبداع والإتقان . تأمل قول شاعر الطبيعة الموهوب ابن خفاجة الأندلسى إذ يقول .

يا ليل وجْد بنجد أما لطيفك مسرى؟
وما لدمعى طليقا ونجوم الليل أسرى
وقد طمى بحر ليل لم يعقب المد جزرا
لا يعبر الطرف فيه غير نهر المجرة جسرا

فهذه قطعة مصورة من الطبيعة ، وقد اخترتها مفعمة بألوان الصناعة ، ومعناها جميل رائع ، وخيالها حسن ساحر ، فقد عنى فيها الشاعر بالجناس بين « وجد ونجد،ومسرى وأسرى وجسرا » وبالطباق بين «انطلاق الدمع وأسر النجوم» وشبه الليل ببحر لأنه جياش الظلام متموجه كلجة البحر الموارة، ترمى بالموج المتتابع ، وذكر المد والجزر وعبور الجسر ترشيحا لهذا التشبيه الصادق، فجاءت القطعة رائعة النسج والمعنى . فهو يقول « ياليل الوجد،هل يسرى طيفك الذى أمضنى ثباته ، وأقض مضجعى استرساله ، ومالدمعى طليقا لوجدى وحزنى ونجوم الليل أسرى ثابتة فى مكانها لا تؤذن بتحوله وتقضيه ؟ وقد طمى الليل

وترامى ظلامه إلى أطراف الأفق كما يترامى ماء النهر بتأثير المد فيه ، وظل مسترسلا فى طغيانه لم يلحقه جزر — وترى المجرة التى تشبه النهر فى ضيائها واسترسالها قد شطرت الظلام فى رأى العين شطرين ، فكأنها بين شقى الظلام قنطرة تعبر عليها العين من أحد الشقين إلى الآخر » وتلك معان قد آزر فيها الفكر الصنعة ، حتى برزت الصورة واضحة جميلة كما رأيت .

ولو أن الشاعر قال « طال ليل الوجد ولم يتحرك طيفه ودمعى يسيل ، والنجوم ثابتة وترى الليـــل مظلما لا يضيء فيه غير المجرة » لما كان لهذا الكلام التأثير الذى تراه فى الصورة الماضية .

ومن هنا يظهر أن الشاعر الموهوب لا تعوقه الصناعة عن بلوغ الغرض ، لأن قدرته تعينه على صوغ الصورة الفنية كما يشاء ممزوجة بألوان الصناعة — بل إن الصناعة والخيال مما يعين على تنمية المعانى ، وبسط أفقها أمام الشاعر أو الكاتب ؛ فلولا تشبيه الليل بالبحر وذكر الترشيح لهذا التشبيه لحرمنا معنى البيتين الأخيرين ، ولوقف الشاعر عند معنى الأولين .

والصناعة إنما تقبح وتسمج إذا تناولها شاعر أو كاتب ضعيف مريض الذوق غليظ الطبع قفر الخيال سليب الهبة الفنية ، وتكون الصناعة فى يده كأوتار العود فى يد المشلول إذا حركها بيده أتت بأقبح النغم وأبغض الإيقاع ، ولهذا قبح الشعر فى عصور ضعف اللغة . ولسنا نعارض المجددين فى أن هذا النوع من الصناعة المريضة الملحة فى الإسراف مفسد الأدب — ولا نريد هنا أن نورد شيئا من هذا النوع البغيض ضنا بالذوق والفطرة .

وإذا كان اليونانى قد أثر فى العقول بقوة الفكرة والجمال الخالص البعيد عن الصناعة كما يقول الأستاذ « جيب » فذلك لأنه نشأ فى بيئة منطقية فلسفية لا تلائم الصناعة كثيرا — ولم يشأ العقل اليونانى أن يقف بعيدا عن الصناعة ، بل أحب أن يأخذ منها بالقسط الملائم ، وظهرت الدعوة فى الأدب اليونانى

إلى ذلك، وأول بادرة فى هذا السبيل رسالة تسمى «رسالة لنجينوس فى الجلال» عرض لوصفها، وذكر بعض الغرض منها الأستاذ « لاسل آسل كرمبى » أستاذ الأدب الإنجليزى بجامعة لندن فى كتابه قواعد النقد الذى ترجمه الدكتور محمد عوض حيث يقول فى صدرها « وهى كتاب كاد فى بعض الأحيان أن يجارى كتاب الشعر لأرسطو فى الأهمية — لكنه كتاب نقد صرف، ولا يستند إلى نظرية فلسفية فى الأدب، وهو وإن كان من تأليف كاتب يونانى عاش فى القرن الأول بعد الميلاد، فإن أهميته فى تاريخ النقد حديثة، ترجع إلى عام ١٥٥٤ حينما طبع الكتاب للمرة الأولى . . . . وكلمة الجلال هنا لها معنى خاص خلاف المألوف . ذلك أن المؤلف المجهول أراد فى كتابه هذا أن يصف طبيعة الأسلوب، الأدبى، الذى من شأنه أن يسمو باللغة فوق المستوى العادى للألفاظ . . . . فإن من رأيه أن الأمور التى ترفع الأسلوب وتجله — مثل جلال الموضوع المتخيل وقوة العاطفة البالغة أقصى حد، والمقدرة على حسن استخدام ضروب وأشكال من وسائل التعبير اللفظى — جديرة عند التحليل أن تكون قواعد للأسلوب الجيد » ويقول الأستاذ لاسل فى مدح الصناعة فى هذا المقام وفى تأثير مذهب المؤلف اليونانى أولنجينوس فى بعض الآداب الغربية « ومن الناس من يزعم أن ملكة الشعر هى مجرد هبة من الطبيعة . وليس من شك فى أنها من هبات الطبيعة مثل الحظ الحسن . . ولكن كما أن الحظ المؤاتى لا يمكن أن ينتفع به على الوجه الأكمل إلا بحسن التدبر والتعقل — كذلك من العقل أن يصغى الشاعر إلى صوت الصناعة إذ ترشده إلى كيفية استخدام ما حبته به الطبيعة . هذا الضرب من النقد الذى نستطيع أن نسميه النقد الأسلوبى وهذه النظرة الخاصة إلى الأسلوب قد ظهرت آثارهما فى الأدب الإنجليزى فى كتابات « بن جنسن » (Ben gonson) كان جنسن هو المثل الأعلى الذى عاش فى العصور التالية، ونشأت بعده مدرسة سميت مدرسة (بن) وانتصر لها بعد ذلك الشاعر دريدن « Dryden » .

من هذه الكلمة يتبين عطف القوم من يونان قدماء، وغربيين ناشئين على الصناعة وتقديرهم بها فى تراثهم الأدبى. فما بال المجددين وغيرهم يغضون من قيمة أدبنا لأجلها ؟ وإذا كان هذا الحكم منظورا فيه إلى عصور التأخر والعنف فلماذا أقاموه على تلك العصور، ولم ينظروا إلى عصور القوة كما أسلفنا ؟

ولقد تأنق الشعراء فى الأدب العربى فى اختيار أساليب معينة والتزموها فى الشعر حتى عرفت بأنها أساليب شعرية، ومخالفتها ليست مقبولة فى الذوق الشعرى، وإن كانت مقبولة فى الذوق اللغوى — وتظرف الكتاب وبالغوا فى الترف الكلامى ما شاء لهم ذوقهم، وسمح به ظرفهم، حتى أحدثوا لهم عرفا كتابيا خاصا، فتخيروا ألفاظا كتابية مألوفة وصار العدول إلى غيرها جفوة للفن، وإن لم تنكره اللغة. ومثل هذا التأنق الفنى تراه قد ظهر فى الأدب الغربى وكأنما أوحى به إليهم الأدب العربى الذى سبق الأدب الغربى فى ذلك. ويحدثك الأستاذ لاسل آسل كرومبى عن هذه الظاهرة فيقول « هذا وأكبر ما يمتاز به الأسلوب الشعرى فى القرن الثامن عشر هو فخامة اللفظ . . وإذا صح القول بأن الشعر فن عقلى، أليس الواجب فى هذه الحالة أن يلزم طرازا واحدا من العبارة اللفظية يكون أكثر ملاءمة له من سواه ؟ وبناء على هذا أخذت تسود الفكرة القائلة بأن ضروبا خاصة من التعبير هى بطبعها شعرية، ويمكن استخدامها فى جميع المواقف الشعرية، وما سواها لا يصح استخدامه. ولعل أكبر ما امتاز به أدب القرن الثامن عشر أن استطاع إيجاد عبارة شعرية تفى — فيما يظهر — بجميع الأغراض الشعرية. ولكن الحقيقة أنها كانت وافية بأغراض محدودة، وبضروب خاصة من التعبير لا تعدوها . وقد كانت ثورات قام بها أفراد من آن لآن على ذلك المذهب فى القرن الثامن عشر نفسه. ولكن الذى حمل عليه حملة قضت على مزاعمه قضاء تاما هو الشاعر وردسورث (Word Sworth) حين كتب فى عام ١٨٠٠ مقدمة لكتاب قصص وأناشيد (Lyrical Ballads) أنكر

فيها أن هنالك عبارة شعرية بطبعها ، وقال إن اللغة الصحيحة للشعر هى اللغة التى يتكلمها الناس والذى يجعلها لغة شعرية هو كيفية استخدامها .. ولقد أفسح ورد سورث الطريق أمام أصحاب المذهب الحر (الرومانتزم) وجميع المذاهب والحركات الفكرية التى تبغى التحرر من قيود الأسلوب ، ولكن ليس معنى هذا أن الدروس التى أملاها القرن الثامن عشر ضاعت هباء . بل لا تزال الآراء المألوفة فى النقد يظهر فيها الأثر الهائل الذى تركه لنجينوس وبن جنسن »

نسوق هذه الأدلة كلها للمجددين ليعلموا أن الصناعة حظ شائع بين آداب العالم جميعا، وإن اختلفت قوة وضعفا ، وأن الآداب الغربية مرت بها مؤثرات تشبه المؤثرات التى مرت بأدبنا العربى،وتمر به كالصناعة، والتزام عبارات شعرية وما الخلاف بين الرومانتكيين والكلاسيكيين الذى نشأ فى الأدب الغربى إلا صنو الخلاف بين المحافظين والمجددين فى الأدب العربى الآن .

وبعد هذا فما فضل المجددين فى دعوتهم ؟ إنا نراهم باتصالهم بالآداب الغربية قد تأثروا بما وجهه فيها النقاد إلى الصناعة وإلى زخرف الأسلوب والنسج على منوال الطريقة المثالية القديمة ، وتأثروا كذلك بما يتعرض له الشعر والنثر فى هذه الآداب من الإلمام بموضوعات تمس الحياة العامة ، والتحليل لمواقف دقيقة مختلفة ، فأرادوا أن يحاكوا الغربيين فى هذا كله ، فحملوا على أدبنا العربى بمثل ما حمل النقاد الغربيون على أدبهم ، فليس لهم فى ذلك إلا فضل المحاكاة ، وغنى عن البيان أن فضل الابتكار والاختراع أجمل وأولى من فضل المحاكاة،فليدعوا الشرقيين المحض وشأنهم فى هذا السبيل ، فإن فاقد الشىء لا يعطيه ، وليطلعوا على الناس بمذهبهم فإن عصر القول قد مضى مملولا ، ومن علم فعليه أن ينفع الناس بثمار علمه وفضله .

أنا — جزاك الله خيرا يا صديقى العصفور على ما قدمت لأخيك من حسنات لم يوفق اليها من قبل ، ولقد دفعت عن أدبنا العربى مظالم أوشكت

أن تنزل من الناس منزلة الحقائق ، وكشفت عن نواح كثيرة كنا نظن أنها ثمرة عقول المجددين ، ووليدة قرائحهم فإذا هم فيها محاكون.

ولاحت فى الجو ثكنة من الطير تسعى إلى عشاشها ، وقد أدركها الليل ، فلما رآها حن إليها حنينا شديدا تبين أثره فى عينيه ، واضطرب اضطرابة قوية ، عاد بها عصفورا يخترق أجواز الفضاء ، ثم حلق فى الجو ، وخفق بجناحيه خفقتين إيماء لى بالتحية والوداع ، ولحق بالثكنة واندمج فيها.

عبد اللطيف المغربى

ساحر الشمال

أو

سيرولتر سكوت

١٧٧١ — ١٨٣٢

للأستاذ عبد الرازق حميدة

من يزور المدينة الرمادية القديمة « مدينة إدنبرة » ويمشى فى الشارع الرئيسى فيها يرى أنبل نصب وأفخم بنية أقيمت لذكرى أديب فى أى عصر من العصور أو بلد من البلدان ، ويرى تحت قبة هذا النصب تمثالا من الرخام الأبيض لرجل ذى منزلة لم يظفر بها كثير غيره فى الأدب ، حتى رأى كثير من الناقدين الإنجليز أن اسمه جدير أن يجىء فى سجل الفخار الذى يحوى أسماء أدبائهم تاليا لاسم شكسبير ، ذلك الرجل هو « ولترسكوت » أو « ساحر الشمال » .

ولد هذا الأديب العظيم فى مدينة « إدنبرة » فى ١٥ أغسطس سنة ١٧٧١ وكان أبوه محاميا ، وجده لأمه أستاذا فى الجامعة ، وكان أبوه موسرا ذا سعة . فأنفق على تربية ابنه من سعته ، وكان الغلام « ولتر » صحيح الجسم قوى البناء ، إلا أنه أصيب بحمى تركت رجله اليمنى مشلولة ولم يفلح فيها أى دواء . فظل سكوت بعد أعرج مريضا ، وقد أرسله أبوه وهو مريض إلى مزرعة جده فى سميلهولم « Smailholimc » عسى أن ينفعه هواء الريف أو يذهب عنه الآلام.

فى سمبلرهولم

رأى سكوت نفسه فى مقاطعة من مقاطعات الحدود بين انجلترا واسكتلندا، وكانت الحرب بين البلدين دائمة مدة أربعة قرون، ولم يكن يخلو مكان فى هذا الجزء من اسكتلندا من حديث الحرب، والقصص الطريفة حول البطولة وأحاديث الشجعان، وأخبار الغارات التى كان يشنها بعضهم على بعض، ونخارهم بما يحرزون من انتصار، أو يربحون من مغانم، وإشادتهم بما يأتيه أبطالهم من ضروب الفروسية والشجاعة. وكانت هذه الأحاديث والقصص ملهى للفلاحين يتحدثون بها فى أسمارهم، وتدور حولها أغانيهم وأناشيدهم.

وقد أغرم « سكوت » بسماع هذه القصص، ومالت نفسه إليها ميلا طبيعيا، وكان ذا قدرة عظيمة على التخيل، فاستطاع أن يملأ دور الأبطال بمن عمروها فى سالف الأيام، وأن يلبس هيا كلهم ثيابا موشاة من بدائع قلمه وخياله، وأن يبعثهم فى قصصه وقصائده إلى الحياة، وكانت لهذه الحكايات آثار قوية ظاهرة فى رواياته، فقد استمد منها كثيرا من الحوادث والشخصيات، وأسبغ عليها عبقريته وخياله ماجعله مسطورا فى سجل الخالدين.

سكوت فى المدرسة

لما بلغ سكوت الثامنة من عمره أرسله أبوه إلى المدرسة فى « إدنبرة » ويتهمه كثير من الكتاب بالغباء فى طفولته. والحق أنه لم يكن كذلك، إنه كان يكره المدرسة ويكره واجباتها، ولم يكن من الذين يعكفون على الكتب المدرسية يعيدها ويبديها، غير أنه كان ممتازا بحضور ذهنه، وقوة ذاكرته، وكان امتيازه فى ميدان الألعاب باديا واضحا، وكان تفوقه فى اللعب أكثر من تفوقه فى حجرات الدراسة، وكان يميل إلى المشاجرة والقتال مع أبناء الجيران. وكان يقضى كثيرا من وقته فى تسلق جنبات الطريق المؤدى إلى « صخرة القلعة » فى ضواحى إدنبرة. ويحدثنا بعض مؤرخى حياته أنه كان

ممتازا على أبناء المدرسة جميعا بقدرته على قص القصص ، وسرد الحكايات .

وقد نشأت بينه وبين تلميذ اسمه « جيمس بالانتاين » صداقة متينة وهو في المدرسة ، وبقيت إلى أخريات أيامه ، وقد أصبح بالانتاين فيما بعد ناشر روايات سكوت ، ثم زميلا له في إدارة مطبعة ، وخسر سكوت من وراء تلك الشركة خسرانا مبينا .

كان سكوت كلما انتهى من درس المدرسة يدعو إليه صديقه بالانتاين قائلا : تعالى إلى ياجامى ، فسأقص عليك حكاية . وكانت كل حكاياته تدور حول أخبار الفرسان ، وأيام الشجعان ، ومواقف الأبطال .

وعندما بلغ الخامسة عشرة من عمره لقي شاعر اسكتلندا العظيم بيرنز Burns وكانت تلك المقابلة هي الأولى والأخيرة بينهما - في بيت أستاذ من أساتذة الجامعة ، وكان معهما كثير من ذوي المكانة في المدينة . ورأى « بيرنز » على جدار الحجرة التي كانوا فيها صورة استرعت انتباهه ، ورأى تحتها أبياتا من الشعر فسأل عن قائلها وعن القصيدة التي قيلت فيها ، فما أجابه إلا الغلام « سكوت » فدهش أن يسمع الجواب الصحيح من يافع مثل سكوت . وتنبأ له بمستقبل عظيم .

في الجامعة

انتهت أيام سكوت في المدرسة فالتحق بالجامعة ، ولكنه لم يكن يحب الدراسة الرسمية وقيودها ، فانصرف عن دروس الجامعة . وفضل أن يهيم في الجبال المحيطة بإدنبره يناجي أحباءه من فرسان الأيام الخالية ، ويستعيد ذكرى الأبطال والشجعان وجميلات العقائل الذين سمع بهم وبأساطيرهم في حداثته . واستطاع في تلك الفترة أن يتعلم اللغة الإيطالية عساه يستطيع أن يقرأ ما كتبه النابهون من شعراء إيطاليا حول البطولة وأخبار الفرسان .

ولما غادر الجامعة التحق بمكتب أبيه ليتخرج عليه في المحاماة ، وكثيرا

ماذهب إلى الأراضى المرتفعة المعروفة بال « High Lads » لقضاء أعمال خاصة بمهنته . فكان لما رآه هناك من مناظرفاتنة ساحرة أثرعظيم عليه:لقدأحب هذه البلاد ،وأحب الحديث إلى أهلهاعلى اختلاف طبقاتهم ، فتحدث إلى الصغير والكبير ، وإلى الغنى والفقير.واستمع لقصصهم الريفية ، وحكاياتهم الطريفة ، وكان يصغى بكل جوارحه إلى ما كان منها خاصا بالحدود ، أو الأراضى المرتفعةأومدينته الساحرة «إدنبرة» التى ربا فيها وليدا،وقضى فيها من عمره سنين

وفى سنة ١٧٩٢ أصبح سكوت محاميا ، وكان عمله فيها قليلا جدا ، فكان يذهب فى أوقات فراغه إلى مقاطعات الحدود ، حتى كاديعرف كل شبر من أرضها، وكان يجمع فى رحلاته كل مايصل إلى سمعه من أناشيد أو قصص،وكانت رحلاته لدراسة أحوال الناس فى تلك الجهات .

وكان سكوت رفيقا يؤنس الجليس، ويسر الأصحاب، فكان يقابل بالترحيب والإكرام أنى أقام .

زواجه

وبعد خمس سنوات من اتخاذه المحاماة مهنة تزوج من فتاة جميلة اسمها « شارلوت كاربنتر » وكان زواجه سعيدا ، فتفرغ لعمله العظيم كأديب،وترجم ونشر كثيرا من الشعر الألمانى . وأخذ يستعد لإخراج مجلد يحوى بين دفتيه كل ما استطاع أن يجمعه فى رحلاته من أناشيد البطولة (١) .

وقبل أن يظهر هذا الكتاب كان سكوت قد اختير قاضيا فى مقاطعة روكسبيرج Rox burgh . وكان عمله قليلا فصرف الزائد من وقته فى عمل هذا الكتاب ، وعندما أتم إعداده للطبع قام بنشره صديقه بالانتاين،وذلك سنة ١٨٠٢

(١) نقصد بها مايسمى بالانجليزية Ballads وهى أغنيات من الشعر القصصى تدور على ألسنة العامة،ويتغنون بها تمجيدا لآبائهم وشجعانهم فى الحروب السالفة أو هى « ملاحم عامية قصيرة » وهى أشبه ماتكون بالمواويل)

فقوبل الكتاب بالثناء العظيم،وربح منه ثمانين جنيها . وربح فوق ذلك عددامن الأصدقاء والمعجبين . ومن بينهم عدد من قادة الأدب فى عصره ، وعلى الرغم من ذيوع صيته كمؤلف فإنه لم يتخل عن عمله القانونى ، غير أنه ترك إدنبره وأقام فى الريف .

سكوت فى الريف

اتخذ له بيتا على ضفاف نهر « تويد » . وكان يحب هذا النهر حبا جما فجاوره ليمتع سمعه وبصره بغناء هذا النهر الجميل ، وما على ضفتيه من جمال طبيعى فنان. وفى هذا البيت انصرف إلى الرياضة الريفية ، وتربية الأغنام ، وبعدمدةقصيرة من إقامته , نشر قصيدته المسماة « مكانة الموسيقار الأخيرة » فأصبح بين عشية وضحاها ، معروفا من جميع القراء ، وأصبحت القصيدة حديث الناس أجمعين .

كانت هذه القصيدة قطعة من الشعر العذب الجميل . وكانت قصة شائقة فى قالب شعرى ، ولم يكن للناس عهد بمثلها فى الجمال ، ولا بمثل صاحبها فى القدرة على سرد القصة وتنسيقها منذ تشوسر Chaucer وقد سر منها كل من قرأها ؛ لقوتها وخصبها ، أما أشخاصها فكانوا من النبلاء الشجعان ، وكانت أغانيها على درجة عظيمة من الدقة والجمال ، أما وصف الطبيعة فكان آية فى الحسن والرقة.

لقيت هذه القصيدة نجاحا عظيما ، وربح منها شاعرهاسبعمائة وخمسين جنيها وكانت فاتحة خير وبركة عليه وبشيرا بمستقبل زاهر ينتظره .

أول رواية كتبها سكوت

وقد بدأها فى ذلك العهد ، عهد اتصاله بصديقه بالاتين وقد أرى بعض فصولها لصديق كان يثق فى ذوقه الأدبى فلم يتنبأ لها هذا الصديق بقبول حسن من الجمهور ، ونصح « لسكوت » ألا يضيع وقته فى مثل هذا العبث،فأصغى إلى نصحه ، وترك النثر وولى وجهه شطر النظم مرة ثانية .

قدرة سكوت على العمل:

ما كان أقدره على العمل ! وما كان أصبره على التعب ! فإنه عندما كان فى « آشستيل Achestiel » كان يصحو كل يوم فى الخامسة صباحا ويجلس إلى مكتبه فى السادسة، وكتبه مصفوفة حوله على الأرض وكلبه العزيز عند أقدامه، وعندما يجىء موعد الإفطار يكون قد « كسر ظهر » عمله اليومى، ويصبح حرا طليقا فى الظهر، ثم ينصرف بعد ذلك إلى مزاولة بعض أنواع الرياضة الريفية التى كانت محببة إلى نفسه.

وعندما كان فى إدنبره كان لا يهجع إلا قليلا من الليل، وكان يقضى ذلك الوقت كاتبا مؤلفا، وكثيرا ما رأى أصحابه خيال يده على ستائر النافذة فى السحر، وهو يضم صفحة إلى صفحة من مخطوطات مؤلفاته.

وفى فبراير سنة ١٨٠٨ نشر قصيدته « مارميون Marmion » التى تعتبر أعظم ما كتبه سكوت من الشعر، وقد أنفق فى كتابتها كثيرا من وقته وراحته، وتطلع الجمهور بشغف إلى ظهورها وقد عرض « كنستابل Constable » أكبر ناشر فى إدنبره ألف جنيه على مؤلفها قبل أن يراها، وقد لاقت على الرغم مما رآه فيها بعض الناقدين من عيوب ـ نجاحا أى نجاح.

فى تلك السنة شجر بين سكوت وبين كنستابل خلاف أدى إلى أن يترك الأول الأخير، ويتصل بشركة جيمس بالانتاين للنشر. وكانت أول قصيدة نشرها عندهم هى « سيدة البحيرة » وهى أشهر القصائد الطوال لهذا الشاعر العظيم وأحبها إلى الجمهور. وقد قوبلت أحسن استقبال منذ نشرها، وبيع منها عشرون ألفا فى عام.

وقد كانت المنطقة الجميلة ما بين « كالندر Ceallander » وبحيرة كاترين Loch Katrine » ـ مجهولة ومجهولا جمالها من السائحين. فلما نشرت تدفق الناس إلى تلك المنطقة ومعهم قصيدة « سيدة البحيرة » كمرشد يهتدون به إلى جمال ذلك الإقليم.

وعلى الرغم مما جاءت به هذه القصيدة من ربح، فقد كانت دار الطباعة والنشر التي يملكها بالانتاين سائرة في طريق الإفلاس، لما نشرته من كتب كاسدة ثقيلة، لا يرضى الجمهور أن يقتنيها، ولو قدمت إليه بلا ثمن، ولم يكن الدافع لها على نشرها إلا عطف «سكوت» وإشفاقه على البائسين من أدعياء التأليف والإنشاء.

وعلى الرغم من هذا فقد استطاع سكوت في تلك الفترة أن يشترى مقاطعة «أبو تسفورد Abbotsford» على ضفاف التويد، بأربعة آلاف من الجنيهات، وبنى فيها بيتا جميلا ملأه بالدروع والصور، وأنشأ حولها جنات وغابات كلفته كثيرا من النفقات، وابتلعت كل ما كان يربحه من كتبه الرائجة.

وفي هذا المنزل الجديد كتب سكوت قصيدتين قوبلتا بفتور وإعراض وأحس بانصراف الناس عنه إلى صوت قوى جديد ظهر به شاعر آخر عاليا مدويا في سماء الشعر هو «لورد بيرون Lord Byron» وأحس سكوت بتفوق منافسه الجديد، فأبى عليه حياؤه إلا أن ينصرف إلى النثر ويترك قول الشعر لمن هو أطول باعا وأقوم قيلا.

العظيم المجهول :

كان سكوت يقلب ذات يوم في المخطوطات المكدسة في مكتبته، فوجد روايته المسماة «ويفرلى» التي بدأها منذ أعوام، ثم انصرف عنها بعد أن نصحه أحد أصدقائه كما تقدم. قرأها بعناية وقرر أن يتمها ويذيعها في الناس ولا يكتب اسمه عليها إذ أنه لم يكن واثقا من نجاحها، ولم يكن يحب أن يسيء إلى نفسه، ويحط من قدرها بعد أن عرفه الناس شاعرا عظيما. تمت الرواية في ثلاثة أسابيع، ونشرت في يوليه سنة ١٨١٤ فتقبلها الجمهور أحسن قبول، وأجهد الناس أنفسهم لمعرفة اسم المؤلف؛ ولما لم يصلوا إلى نتيجة أطلقوا على المؤلف «العظيم المجهول»

كانت هناك روايات تاريخية كثيرة قبل ويفرلى ، ولكن لم يستطع مؤلف قبل سكوت أن يحيي العظام الرميم ، ويبعث السابقين من الأبطال فى عصرهم بقوة الأدب وسمو التصوير ونبل الأسلوب . وكأنما كان يحس القراء بعودتهم إلى العصور الخالية، ويرجعون بأنفسهم القهقرى ، ليروا حياة آبائهم السالفين . وقد كانت فيها القصص الممتعة والأساطير الشاقة والاستطراد المحبوب ، ووصف الطبيعة وصفا يصورها أبدع تصوير ، والمعرفة العميقة بالناس رجالا ونساء . وقد ملىء الناس بها إعجابا وسرورا، وارتقبوا رواية أخرى على طرازها فكتب لهم ما أرادوا فى ستة أسابيع ونشرها باسم (جاى مانرنج Guy Mannering) وهلل الجمهور وصفق لطلعتها ، وأقبل المال وتدفق على صاحبها ، وزالت متاعبه وأزماته ، وأنفق عن سعة على مزرعته فى أبوتسفورد ؛ وكانت هاتان الروايتان الثمرة الأولى للناحية الجديدة التى جرب فيها سكوت قدرته الأدبية، وهى كتابة الروايات .

وفى السنوات العشر التالية تدفقت رواياته بسرعة مازالت تدهش الكثيرين الذين يعجبون من مقدرة رجل واحد أن يفعل هذا . وبقى سر المؤلف مكتوما حتى فشا أخيرا ، مع أن سكوت لم يبح به إلا فى سنة ١٨٢٧

وأصبح أشهر الكتاب وأكثرهم حظوة عند القارئين ، وزار لندن والقارة الأوربية ، واستقبل أحسن استقبال أينما حل . واشتغل بجهد بعد عودته إلى أبو تسفورد وظهرت رواياته تترى . وقرأ الناس ما كتبه فى انجلترا وفى أوربا ، وتملقه الأكابر والأعيان ، وربح مايزيد على عشرة آلاف جنيه سنويا . وخلع عليه الملك لقب (بارون) فى سنة ١٨٢٠

ولكن مرضا ألم به وسط النجاح جاءه منذرا ، فلم يخفف عن نفسه، ولم يرفق بها فأملى روايتين فى مرضه .

أيامه الأخيرة :

قصة حياته فى السنوات الأخيرة محزنة ، ولكنها تبدى الرجل العظيم فى خير حالاته . فقد رأيناه من قبل كاتبا عبقريا ، ومحسنا طيب القلب ، والآن نراه وقد مسته البأساء والضراء ! وإذا كان شكسبير قد قال كما قال أبو الطيب فى شدته :

« جزى الله الشدائد كل خير »

فقد خرج سكوت من شدته بطلا ، ففى يناير سنة ١٨٢٦ هطلت عليه المصائب، وأصابه الفقر من جراء اشتراكه فى شركة النشر والطباعة مع صديقه بالانتين، وخرج مدينا بآلاف الجنيهات ، فاحتمل المحنة صابرا ، وقابل الشدة رجلا ، وتمثل بقوله هو : « لقد جئنا عراة إلى هذا العالم، وسنخرج منه كما جئنا، والحمد لله! »

وطلب منه قوم أن يشهر إفلاسه فأبى وقال : هذه اليد اليمنى ستزيل ما بى من شدة . ولكنه كان قد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا ، وكان فى حاجة إلى الراحة والعيش الهنىء ، فلم يستسلم إلى الدعة وآثر العمل ، غير أن صحته المجهدة المعتلة لم تحتمل ، ولم تنفعه رحلته إلى إيطاليا ليتمتع بهوائها ، وزاد اعتلاله ، ودفعه حنينه إلى أبو تسفورد أن يعود إليها ففعل ، وبرىء بعض البرء، وأصبح قادرا أن يستمع إلى ما يتلى عليه من الإنجيل ، وحاول أن يكتب، فسقط القلم من يمينه، فاستلقى فى كرسيه باكيا صامتا .

وفى منتصف الساعة الثانية من ليلة ٢١ سبتمبر قضى نحبه بين أولاده .

لقد كل يوما جميلا ، دافئا ، وكان هادئا ساكنا ، وكانت أغانى نهر التويد الحلوة وخرير أمواهه تتردد فى سمعه حتى أطبق أجفانه . وبهذا تنتهى قصة حياة « ساحر الشمال » الذى يعتبر فخرا للأدب الإنجليزى ، فوق عظمته وإحسانه .

وإذا كان جورج الرابع منحه لقبا، فقد جعله الله نبيلا . وإذا كان العظيم المجهول فى حياته ، فسوف يبقى ما بقى اللسان الإنجليزى ، العظيم الذى لا ينسى .

(يتبع) **عبد الرازق حميدة**

هكذا مات سقراط

للأستاذ محمد على مصطفى

أيها الأثينيون :

ليت شعرى ماذا ترك الذين اتهمونى من الأثر فى نفوسكم ! فلقد جعلونى أنسى نفسى ، لاعتمادهم على زخرف القول ، وتنميق الكلام ، ولكن الحق لم يجر لهم على لسان ، وأعجب أكاذيبهم عندى أنهم يقولون : « إنى متكلم ماهر » ولست أدرى ماذا يقصدون إلا إذا أرادوا أنى لاأخشى فى الحق لومة لائم ، وفى هذا أوافقهم . لقد جاء الذين اتهمونى بالإفك ، ولكنكم ستسمعون منى الحق الصراح .

أيها الأثينيون :

إنكم لن تسمعوا منى خطبة منمقة ، أو كلاما يأخذ حسنه بالألباب، ويسحر العقول ، فإنى أرتجل القول ارتجالا ، معتمدا على أن الحق نصير نفسه . لايليق برجل مثلى بلغ من الكبر عتيا ، أن يقف أمامكم ، ويخدعكم بقوله ، كما يفعل الشبان . لاتقطعوا على الكلام ، ولا تعجبوا إذا تكلمت فيكم كما أتكلم فى الأسواق وعند الصيارفة ، فإنى أقول الحق .

لقد جاوزت السبعين من العمر ، وهذه أول مرة أقف فيها أمام القضاء ، وليس لى علم بلغته ، ولو أنى كنت غريبا لأجزتم لى أن أتكلم بلغة قومى ، والذى أرجوه منكم ألا تعولوا على أسلوب البيان ، فقد يكون جيدا أو رديئا ، ولكن وجهوا عنايتكم إلى معنى ما أقول ، وتأملوه لتعرفوا إن كان حقا ، أو باطلا ، وهذا واجب القاضى العادل، كما أن واجب المحامى أن ينزه لسانه عن قول الباطل ، ويستمسك بالحق .

أيها الأثينيون :

إنى أبرىء نفسى من كل مانسبوا إليها ، بالرغم من إصرارهم على دعواهم ، وتماديهم فى باطلهم ، ومحاولتهم إقناعكم بأن سقراط ، الرجل الحكيم ، يفكر فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شيء ؛ ليحق الباطل ويبطل الحق ؛ وإنى لأخالهم فإن كل من سمعهم يعتقد أن كل من يفكر فى العالم لا يصدق بوجود الإله .

أيها الأثينيون :

لقد كثر حسدى ، ودفعتهم الكراهة والبغضاء إلى اللجاجة والعناد ، ولست أعرف واحدا منهم ، حتى أختصم معه أمام القضاء ، وأناقشه الحساب ، فأقرع الحجة بالحجة ، وأدمغ الدليل بالدليل. وما أنا إلا كمن يحارب الأشباح ، أو يسأل الموتى . إن الذين اتهمونى فريقان : ميلتس وشيعته ، وشيوخ معمرون طالت صحبتهم للحياة ، وعرفوا الأيام حلوها ومرها ، وسأبدأ بتفنيد مزاعم هؤلاء . سأدافع عن نفسى فى هذا الوقت القصير ، ضارعا إلى الله أن يكتب لى النجاح، وأن يرشدنا الى الحق وإلى صراط مستقيم ، فإنه ولى التوفيق !

على هذا النحو من الأسلوب الرائع يسير سقراط فى الدفاع عن نفسه أمام المجلس رابط الجأش ، مطمئن القلب ، لا يبالى بما يؤول إليه أمره ؛ يلجأ إلى المنطق تارة ، وإلى قوة البيان تارة أخرى ، يلين ويرق فى قوله حتى يظن أعداؤه أنه استكان ووهنت قوته ، ثم يعصف ويدوى صوته فى الأرجاء ، ويجلى حجته عنيفة دامغة ، ساخرا من خصومه ، مستهزئا بأعضاء المجلس ، إلا عدداً قليلا منهم ، استمدوا منه العلم ، وكانوا من أتباعه ومريديه.

بهذا الأسلوب القوى العنيف ، اللاذع الساخر ، دافع الحكيم عن نفسه ، فأغضب السامعين ، ودفعهم إلى الحكم بإدانته . فتلقى حكمهم رضى النفس مؤمنا بالقدر خيره وشره ، مطمئنا إلى تلك الحياة الروحية التى تتمتع بها الروح ، بعد

انفصالها عن الجسد .

يودع سقراط السجن إلى أن تحين منيته، ولكنه لا يجبن ، ولا تخور عزيمته، ولا ينسى رسالته التى أمر بتبليغها، فكان تلاميذه يفدون إليه فيحاورهم فى كل شىء ،وينتهى من حواره معهم إلى تقرير الحقائق

مرت الأيام ، واقتربت الساعة ، ودنا الأجل ، وفكر تلاميذه المخلصون فى أن يهيئوا له سبيل الفرار من سجنه ، والنجاة من الموت ، ولكنه لامهم وعنفهم ، فخضعوا له على مضض فى نفوسهم ، ولوعة بين جنوبهم .

اقترب الأجل واشتد شغف التلاميذ بأستاذهم العظيم ،وزاره واحد منهم بكرة يوم، فجرى بينهما الحديث الآتى :

سقراط — لقد حضرت مبكرا فما الذى جاء بك ؟

التلميذ — لقد عجلت بالحضور إليك .

س — عجبا للسجان يسمح لك بالدخول فى مثل هذا الوقت.

ت — طال ترددى عليه فعرفنى ،وأديت له بعض الخدمة .

س — هل مكثت هنا طويلا ؟

ت — نعم.

س — لم جلست صامتا ولم توقظنى من نومى ؟

ت — وددت لو زال عنى ذلك الهم ،وفارقنى الحزن ، وإنى لأعجب من أمرك كيف تنام ملء الجفون ! ولقد عز على أن أقلقك فى مضجعك . وكثيرا ما فكرت فى أمرك.وغبطتك على ذلك المزاج السعيد الذى وهبه الله لك،فإنك تقابل هذه المصيبة التى ابتلاك بها الزمان،ونكبك بها الدهر بجميل الصبر.

س — إن رجلا مثلى تقادم عهده حتى اشتعل رأسه شيبا جديرا ألا يغضب إذا علم أنه ميت لا محالة .

ت — لقد رأيت شيوخا طعنوا فى السن ، ولم يغنهم طول صحبتهم للحياة

عن الغضب وشكاية الدهر وذم القدر وما تأتى به الأيام وتلده الليالى.

س — حقا قلت،ولكن خبرنى ما الذى جاء بك ؟

ت — إنى أحمل إليك أخبارا مرة،وأغلب ظنى أنك لن تشعر بمرارتها، أما أنا وسائر أصدقائك فنجدها مرة محزنة،وإنى لأكثرهم حزنا وأشدهم أسى.

س — نبئنى هل حضرت السفينة من ديلوس ؟ إن وصولها رسول موتى.

ت — لم تصل بعد . ولكن جاءت الأخبار الدالة على أنها ستكون هنا اليوم ، وفى غد تنتهى حياتك .

س — أضرع إلى الآلهة أن تكون نهاية شريفة . وإنى لأعتقد أن السفينة لا تصل اليوم.

ت — من أين لك هذا الاعتقاد؟

س — هأنذا أنبئك . سأموت فى اليوم التالى لوصول السفينة .

ت — نعم.

س — ولكن السفينة لاتصل اليوم بل غدا.

ت — كيف علمت هذا ؟

س — هذا مايوحى إلى به حلم رأيته فى أخريات الليل ولذلك كان من حسن الحظ أنك لم توقظنى.

ت — ما هو ذلك الحلم ؟

س — لقد رأيت كأن فتاة جميلة كاملة فى ملابس بيضاء تدعونى ،وتقول: ياسقراط،إنك ستموت فى اليوم الثالث من هذه الرؤيا.

ت — هذا حلم غريب . فهل لك أن تنبئنى بتأويله ؟

س — إنه جلى واضح ،لا يحتاج إلى تأويل .

ت — قد يكون ذلك . ولكنى أضرع إليك ، ياسقراط.أن تصغى لنصحى

وتنجو بنفسك ، فإن موتك سيكون كارثة لاطاقة لنا على حملها . وأى رزية أشد ، وبلية أعظم من أن يصاب الإنسان فى صديقه الفرد ؟ وإنى لأخشى أن أتهم بالتقصير فى حقك ويقال عنى: « إنه لو أنفق ماله لنجاه » وليس أشنع من أن يرمى الرجل بأنه يؤثر ماله على صديقه . وله عليه حق وحرمة ، ولن يصدق الجمهور أن رغبتنا فى نجاتك خالصة ملحة .

س — أيها الصديق المبجل ! لم تهتم برأى العامة ؟ إن المفكرين الذين نهتم برأيهم ، ونعنى بكلامهم ، سيعتقدون أنا فعلنا كل مافى وسعنا .

ت — ألست ترى من الضرورى أن نهتم برأى العامة ؟ إن جميع ماحصل لك يدل جليا على أن العامة يستطيعون أن يصيبوا الإنسان بالأذى ، ويلحقوا به أعظم ضرر إذا اتهم عندهم.

س — حبذا لو كان العامة يستطيعون ذلك ؛ لأنهم لو ملكوا الضرر لملكوا النفع ، ولكنهم لا يملكون ضرا ولا نفعا ، وإنما هم يميلون مع الأهواء ، ويتبعون كل ناعق .

رفض سقراط الحكيم أن يصغى لنصيحة تلاميذه المخلصين ، وآثر الموت على الحياة ، حتى لا يسجل على نفسه الجبن ، والرضا بأن يعيش فى غير وطنه ذليلا مطأطأ الرأس . ولماذا يخاف الموت ، والسعادة لن تتهيأ له ، إلا إذا فارقت روحه جسده ، وفرت من ذلك السجن المظلم ، الذى يحول بينها وبين السمو إلى عالم الآلهة ؟

جاءت السفينة من ديلوس ، تنذر بدنو أجل ذلك الفيلسوف العظيم ، فاشتد حزن أصدقائه عليه ، وتمكنت اللوعة الممضة من نفوسهم ، ولكنهم غالبوا الوجد وكتموا تلك النار المشتعلة بين الجوانح . وأشرقت شمس ذلك اليوم البغيض ، وسارع أصدقاؤه المخلصون إليه ، وحضرت زوجه وأبناؤه وقريبات

له ، فمكث معهم مدة ، ثم صرفهم عنه حتى يموت هادئا .

مالت الشمس للمغيب شاحبة الوجه ، مصفرة اللون ، ثم اختفت وراء الجبال، ودخل القيم ينذر سقراط بدنو الأجل، وعلى وجهه أمارات الحزن المبرح، «وقال: ياسقراط إني أعلم أنني لن أجدك أخرق كغيرك من الناس. إنهم يغضبون مني ويلعنونني حين آمرهم بشرب السم ، وليس لي في ذلك ذنب ، وإنما أنا أداة في يد أصحاب السلطان ، ولقد وجدت فيك طول مقامك هنا ، نبلا ورفقا وعظمة لم أجدها في سواك، وأشهد أنك أعظم رجل جيء به إلى السجن » ثم يولى عنه وجهه خشية أن يرى الدموع تترقرق في عينيه ، ويقول : الوداع ياسقراط ، إنك ستحمل قضاء الله في رضا وجميل صبر، وأنت تعرف لماذا جئت » ثم ينصرف ويخرج من الحجرة في وله وشدة لوعة واسترسال دمع.

وماهي إلا لحظات حتى يعود القيم وفي يده كأس مترعة بالسم الزعاف، فيتناولها منه سقراط في هدوء نفس وثبات جنان، ويتناولها فلايبقي فيها بقية، ثم يستلقي على ظهره فيسرى السم في جسمه وتتخاذل أطرافه قليلا قليلا، وبعد برهة يقف القلب عن الحركة، ويكشف عن وجهه فإذا كل شيء فيه قد تبدل، وإذا آثار الموت في ملامحه : في شحوبه ، في فمه المفتوح ، في عينيه الواسعتين تنظران لا إلى غاية . وعند ذاك تقدم تلميذه وأقرب المقربين لديه ، قريطون ، فأطبق فمه ، وقارب بين جفونه، ثم أعاد الغطاء، وإذ ذاك ضج الحاضرون بالعويل والبكاء .

وفي هذا يقول صاحب كتاب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء »

« فلما رأيناه قد شربها رهقنا من البكاء والأسف مالم نملك معه أنفسنا، وعلت أصواتنا بالبكاء فأقبل علينا يلومنا ويعظنا، ثم قال : إنما صرفنا النساء لئلا يكون مثل هذا، فأما الآن فقد كان منكم أعظم، فأما أنا فسترت وجهي وكنت أبكي

بكاء شديدا على نفسى إذعدمت صديقامثله، ثم سكتنا استحياء منه، وأخذ فى التردد هنيهة، ثم قال للرجل: قد ثقلت رجلاى فأمره بالاستلقاء وجعل يحس قدميه ثم غمزها فقال له: هل تحس غمزى؟ قال: لا. ثم غمزه غمزا شديدا فقال له: هل تحس غمزى؟ قال: لا. ثم غمز ساقيه وجعل يسأله ساعة بعد ساعة هل تحس فيقول لا ورأيناه يجمد أولا فأولا. ويشتد برده حتى انتهى الى حقويه ثم غمزه فلم يحس بذلك فكشف عنه، وقال لنا: إذا انتهى هذا البرد إلى قلبه قضى عليه. . . فهذا خبر سقراط صاحبنا الذى لا نعلم أحدا فى دهرنا من اليونانيين كان أفضل منه »

محمد على مصطفى

سخرية بشار

للأستاذ عبد العظيم قناوى

بشار بن برد شاعر عبقرى ، قرض الشعر وعالجه فى سن مبكرة ، إذ لم يكن قد بلغ العاشرة ، وعمر حتى جاوز التسعين أو السبعين على خلاف بين مؤرخى الأدب ، وسواء أكانت هذه سنه أو تلك ؟ فإنه قد قضى دهرا يزاول هـــذه الصناعة ويزوق ويدبج فى ذلك الفن ،ويجود وينتخب اللآلىء — على حد تعبيره — وينظم ، وهو دهر يخلق بمن لم يفطر على حب الشعر والكلف بقرضه ونظمه — الشاعر الفحل ، فكيف بمن ولع به صبيا ، فوهب له جميع شعوره ، وقصره الدهر على أن يتفرغ له ويوليه صافى فكره وصادق حسه ؟ لابد أن يأتى بمعان لم يسبق إليها ، ولم يلحق فيها ، وهذا الحكم قضى به من قبل لبشار ، ويكاد يتفق عليه رواة الشعر ونقدته ، حتى من فى نفسه من بشار ذحل ، وفى صدره عليه غل — وهم كثر — لا يستطيع أن يغض طرفه ، عن عبقرية بشار ، وعظمته الشعرية .

ولسنا بصدد دراسة شعره دراسة عميقة ، فكثير من القدامى والمحدثين حللوه معانى وأساليب ، ومحصوه أخيلة وفنونا ، ولم يتركوا من معانيه الشرود معنى إلا فنصوه ، ولا من فكره البعيدة فكرة إلا فحصوا عنها ، ولو أنى أردت تلك الدراسة الآن ماوجدت لدى من مواتاة الظرف وإمكان الفرصة ماينتج لى هذه الدراسة المستفيضة ، فلنجاوزها إلى الحديث عن سمة من سمات عبقريته ، وظاهرة من ظواهر شاعريته ، تلك هى سخريته ، ولعل كمهه أشد العوامل تكوينا لتلك الصفة ؛ إذ جعله لا يبالى أحدا ولا يأبه للائمة ، لأنه يحمل جوازا؛ آثره الله به دون غيره ، وإذا كان قد أخذ آخر الأمر بجريرة لسانه فإنه ـ لاشك ـ يعتبر مالحقه حيفا وعدوانا ، لأنه لاجرم عليه ولاحرج .

تقص كتب الأدب أشتاتا من سخرية بشار بعضها فيه مجون ، وفيه فسوق ،

وفيه فحش يتنزه عن قصه قلم غير المؤلف ، ويتعفف عن التحدث به اللسان العفيف النزيه ، وبعضها طرف ساحرة تشنف بها أسماع العذارى ، ويشرق لها محيا أهل التقوى ، وفى بعضها ما يتأثم منه المتزمتون ، ويتحرج عن قبوله المتشددون .

تنتظم هذه الأخبار ألوانا من التهكم رائعة ، وأنواعا من الفكاهة بارعة ، وأفانين من النكات لاذعة ، يخالها القارىء أنفاس الربيع وقعا ، ويراها من تلفحه ريح السموم ، وتصك وجهه صكا ، لاسيما وهى صادرة عن رجل تحالفت عليه صفات الدمامة ، فهو بأن يهزأ به الناس جدير ، وبأن تتقزز منه العيون قمين ، فقد كان بشار جاحظ الحدقتين قد تغشَّاهما لحم أحمر ، مجدور الوجه ، ضخم الجثة ، كبير الهامة ، مفرط الطول ، فهو أقبح الناس منظرا ، ولكنه كان أبرعهم مقولا ، فكان لسانه السلط يتناول هزؤه الناس جميعا ، فلا فرق لديه بين خليفة ومولى ، وسيان عنده خاصة وسوقة ، حتى محبوبته التى كثيرا مازعم أنها مالكة لبه ، وخالبة قلبه نالها بلذعاته وعبثه ، تارة بارزة سافرة ، وآنا مستترة خافية ، أليس من السخرية منها والعبث بحبها أن يدعى أن حبها أسقم جسمه وأضواه ، وقوض صلبه وهدمه ، وهى تراه كالفيل ، مااصفر له وجه ، ولا جذلت له عين ، ولا ذبل له جفن ، بل هو يزيد على الأيام ضخامة ، ولكنه ينشد :

خفنى ياعبد عنى واعلمى أننى ياعبد من لحم ودم
إن فى بردى جسما ناحلا لو توكأت عليه لانهدم

وينشد : فى حلتى جسم فتى ناحل لو هبت الريح به طاحا

وصدق من قال له : والله إنى لأرى أن لو بعث الله الرياح التى أهلك بها الأمم الخالية لما حركتك من موضعك .

سيقول رجال البديع — وما أكثر مايقولون — إنها مبالغة ممقوتة ، ولكن المبالغة لابد أن يكون لها أصل من الحقيقة ، وحينئذ يبحث عن وجه حسنها

أو مقتها ، أما هذه فجديرة بأن تسمى سخرية مستملحة ، وعبثا مستحبا ، ولا بد من أن عبدة انبسطت رئتاها من ذلك الحبيب الناحل بشعره ، السقيم بتخيله . المكتنز منظرا ، الضخم حقيقة وخبرا .

ومن سخريته اللاذعة التى أنقذته من ضرب مبرح ، وإيذاء موجع ، ذلك العذر الذى نحله أباه؛ ليدفع به شكاته ، ممن نالهم بشعره المقذع صغيرا ، وكانوا يرجونه أن يرد عنهم صغيره ، فكان يوجعه ضربا ؛ حتى سألته أمه المرحمة به، فقال لها : ليكف عن الناس لسانه ، فما أسرع بشارا أن قال من غير روية ولا تدبر : إن هذا الذى يشكونه منى هو قولى الشعر ، وإنى إن أتممت عليه أغنيتك وسائر أهلى ، فإذا شكونى فقل لهم : أليس الله عز وجل يقول: « ليس على الأعمى حرج » ؟

لعل بردا ملىء سرورا وزهوا ؛ سرورا لأنه وجد عذرا يعتمد على كتاب الله ، وما أصدق كتاب الله حديثا ، وزهوا لأن هذا الأكمه سيغنيه وسائر أهله ، وسيجد على لسانه غنى بعد فاقة ، وعسرا يعقبه يسر ، وكذلك هو قد وجد مخرجا يخرج به من حرج أوقعه فيه هذا الصبى الذى لا شك فى أنه كان يضربه مقهورا ، فهو ابنه أيا كان شأنه ، وعماه أدعى للعطف،وأوجب للرحمة، فلما جاءوه معاودين الشكوى ـ ولعل بشارا كان قد سارع إلى هجائهم ليرى أثر معذرته ـ قال لهم أبوه: ما أفرغه فى روعه شيطانه وشيطانهم ، فخرجوا برمين ساخطين لايحيرون قولا غير: « فته برد أغيظ لنا من شعر بشار » ولودروا لعلموا أن هذا المنطق الذى ملأ صدورهم حرجا وألسنتهم بهرا هو فته بشار كذلك .

وكان إذا آتته النكتة لم يبال وقعها ، ولم يخش ماينالهبعدهامن عنت ورهق، فمن ذلك أن أحد موالى المهدى سأل فى مجلس حاشد ، فيه العلماء والشعراء عن المقصود من النحل فى قوله تعالى: « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من

الجبال بيوتا » فقال بشار : هى النحل التى يعرفها الناس . فقال السائل : هيهات يا أبامعاذ — ويظهر أنه أراد تملقه بالكنية ليظفر بموافقته ، أو على الأقل يسلم من عقرلسانه — النحل بنوها شم وقوله تعالى « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » يعنى العلم ، فقال له بشار : أرانى الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بنى هاشم . لقد أوسعتنا غثاثة ! فحنق المولى وغضب ، وشتم بشارا ، ورفع الخبر إلى أمير المؤمنين المهدى ، فدعا بهما وسألهما قص المسألة، فقصها له بشار ، فضحك ملء شدقيه ، وقال للرجل :أجل ؛ فجعل الله طعامك مما يخرج من بطون بنى هاشم ، فإنك بارد غث.

وكان ينشد بين يدى المهدى إحدى مدائحه ، وقدم على المهدى يزيد بن منصور الحميرى ، وكان فيه بله وغفلة ، فبعد أن انتهى بشار من إنشادالقصيدة أقبل يزيد على بشار يسأله عن صناعته ، فقال : أثقب اللؤلؤ ؛ ولعل الأعمى إن صلح لكل صناعة فإنه لا يصلح لثقب اللؤلؤ ، فضحك الخليفة ، ثم قال لبشار مؤنبا : أتتنادر على خالى ؟ اغرب عنى ، فقال له : وما أصنع به ؟ يرى شيخا أعمى ينشد الخليفة شعرا ، ويسأله عن صناعته !

ولم يكن بشار — غفر الله له — يتحرج فى فكاهته ، ولا يتأثم من الوقوع فى الدين ، وله من التوبة ومغفرة الله ورحمته متسع « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » فلا يأخذ عليه المتألهون فكاهاته، ولا يستاء المتزمتون من نكاته ، فإنها قد تحمل فى ثناياها لطفا ،وتطوى ظرفا، وربما لا تسىء إلى الدين ، ولا تنتقص من المتدينين إلا بمقدار سعة صدر من يسمع الحديث ، واستعداده لروائع الطرف ، وطرائف الملح .

مر برجل قد رمحته بغلة وهو يقول : الحمد لله شكرا ، فقال له : استزده يزدك ، وحقا أن الله يحمد على الخير والشر ، وفى السراء والضراء ، ولكن الولع بالنكتة يجد فى مثل هذا الموطن مجالا للتقريع والسخر . ومر به قوم يحملون جنازة ، وهم يسرعون المسير بها فقال : مالهم مسرعين ؟أتراهم سرقوها،

فهم يخافون أن يلحقوا ، فتؤخذ منهم ؟ ولعل دقة ملاحظته ، وحسن تصوره ، هو الذى حدا به إلى أن يرسل هذه النكتة دون أن يرعى حرمة الموت . فيسترجع ، وحاله والموت وهو لا يخافه ، وفيما يلى ما يدل على عدم مبالاته إذا آتته فكرة ماجنة ، أو نظرة عمياء ساخرة.

حدث أحد البصريين قال : نهق حمار فى دار يسكن أعلاها بشار ، فأجابه بالنهيق ثان وثالث فى الطريق ، فقال بشار لزوجته (وكان البصرى فى أسفل الدار) نفخ — يعلم الله — فى الصور ، وقامت القيامة ، وضرب الحمار الأرض ضربا شديدا مرات ، فقال : أما تسمعين كيف يدق على أهل القبور حتى يخرجوا منها ؟ ولم يلبث أن فزعت شاة كانت فى السطح ، فقطعت حبلها ، وعدت فأسقطت طبقا وغضارة (هى إناء من خزف) فانكسرا ، فتطاير حمام ودجاج كان فى الدار لصوت الغضارة ، وبكى طفل فقال بشار : صح الخبر — يعلم الله — أزفت الآزفة . ونشر أهل القبور من قبورهم ، وزلزلت الأرض زلزالها . فعجبت من كلامه ، فسألت عن المتكلم ، فقيل لى : بشار ، فقلت : قد علمت أنه لا يتكلم بمثل هذا غير بشار .

صدق حدس البصرى لأنه لا يحسن تلك اللهجة الساخرة دون أن يعبأ بإثم يناله ، أو جرم يلحقه غير بشار ، ثم لا يمكن أن يكون ذلك الخيال لغير شاعر دقيق الحس ، ولو لم يكن ذلك البصرى ضيق العطن ، لفاض محياه طلاقة ، لهذه التصورات : نهيق متتابع ، ودق متوال ، وأصوات متلاحقة ، لا تجمع بينها جامعة ، ولا تربط هذه بتلك صلة ، أليس فى كل هذا صورة — وإن كانت جد مصغرة — ليوم الساعة ؟ وإذا فما الضير على شاعر أعمى أن يقيس مالا يمكن إدراكه ، بما أدركه ، ولا عليه إن مزح ، ففى احترازه بجملة — يعلم الله — ما يخفف وزره ، ويضاعف لدى محبى الفكاهة أجره . « للحديث بقية »

عبد العظيم على قناوى

المنظـــــــــــار

مسرحيـة من ثلاثة فصول ألفهـا الكاتب الانجليزى

« سدنى جرندى Sydney Grundy. » وقدمت

إلى مسرح جارك « Garrick theatre »

فى لندن سـنة ١٨٩٠

الأشـــخاص

السيد بنيامين جولدفنش

العم جريجورى (أخوه)

پرسى — ابنه

دك — ابن جريجورى

لوريمر — صديقه

بارثولوميو — حذّاؤه

جويس — خادمه

حذّاء آخر .

مسز جولدفنش — زوجته الثانية

لورسى — ابنة لوريمر

شارلوت — خادمة

الفصل الأول

المنظر :

١ — حجرة طعام فى منزل السيد جولدفنش Mr· Goldfinch

٢ — مسز جولد فنش جالسة قرب الخوان بجانب المدفأة تخيط فى ثوب

٣ — پرسى Percy واقف أمامها ، وبين يديه صحيفة يطالع فيها .

پرسى : إذاً ستتكلمين إليها .

مسز جولدفنش : لامانع . ولكن لم لاتتكلم أنت إليها بنفسك؟

پرسى : لأنى لا أحب أن أقابل بالرفض.

مسز جولدفنش : لاخوف من هذه الناحية . وسوف أمهد لك السبيل.

پرسى : شكراً لك . سوف أجرب حظى . إن «لوسى» Lucy آتية هذا الصباح.وفى مقدورك أن تتكلمى اليوم إليها .

مسز جولدفنش : وفى وسعك أنت أيضا أن تتكلم إلى أبيها .

(يدخل جويس Joyce بطبق يضعه على الخوان)

جويس : سيدتى. إن الطعام على المائدة .

مسز جولدفنش : أخبر سيدك ـ إنه فى حجرة مكتبه .

پرسى : فى حجرة مكتبه ؟ أفى مثل هذه الساعة المبكرة؟

مسز جولدفنش : نعم ، إنه يُعد خطابا هاما .

(تجلس مسز جولدفنش وپرسى إلى المائدة)

مسز جولدفنش : لقد قرر أن يرفع كل الأجور ، وهو يُعدالآن خطابا ليرسله إلى جميع المستأجرين .

پرسى : ماذا ؟ أيرفع والدى الأجور ؟ لا أظن . إنه يحاول ذلك منذ عهد بعيد ولكنه لا ينفذ شيئا كما تعرفين .

مسز جولدفنش : لقد صمم فى هذه المرة . إنه سيرفع الأجور بمقدار العشر .

(يدخل جولدفنش ، وفى يده خطاب ، وعلى عينيه منظار ذو إطار ذهبى)

جولدفنش : صباح الخير يابنى . ما أجمل هذا اليوم ! إن الشمس مشرقة ، والطيور مغردة ، وإنه ليطيب أن نسمعها !

مسز جولدفنش : لقد أمطرت السماء كثيرا ، ولا شك أن ذلك سيتلف الأعشاب الجافة !

جولدفنش : ولكن هذا المطر مفيد لحقول القمح .

مسز جولدفنش : يظهر أنك سعيد جدا .

جولدفنش : ولم لا أكون سعيدا مع زوجة جميلة ، وابن جميل ، وطعام جميل ؟ وماذا يتمنى الرجل فوق هذا ؟

مسز جولدفنش : هل انتهيت من إعداد الخطابات ؟

جولدفنش : لم أنته بعد ، وإن كنت قد بدأته.

پرسى : لا أقدر أن أرى شيئا .

جولدفنش : إذا كان الخط غير واضح ، فإن القصد منه واضح.

مسز جولدفنش : ولكنك قد شطبت عنه جميعه .

جولدفنش : لأجعله أخف قليلا. وشعورى الآن أن ما كتبته يعبر تماما..

مسز جولدفنش : عما لا تقصد طبعا !

جولدفنش : عما لا أقصد ؟ كيف ؟ إذا اسمعى :

عزيزى المحترم .

مع الأسف الشديد أخبرك أنى مضطر لأن أرفع إيجارك للأسباب التالية :

أولا .

برسى : ليس من الضرورى أن أبدى أى سبب .
جولدفنس : وأنا لم أبد أى سبب . لقد كتبت هذا فقط .
مسز جولدفنش : أنت تكتب ذلك كل سنة ، ثم تقف فلا تنفذ !
جولدفنش : لأنى لا أجد أسبابا صحيحة أبديها.
مسز جولدفنش : لم لا تأكل ؟
جولدفنش : لأن عقلى مشغول بهذا الخطاب.
مسز جولدفنش : لا تكتبه إذاً . ومن الخير أن تؤجل كتابته للسنة القادمة .
جولدفنش : طبعا من الخير ذلك (يمزق الخطاب ، ويضحكون جميعا)أديرى الخبز من فضلك . إنى أتوقع اليوم حضور أخى من « شيفلد » Sheffield . لم أره منذ خمس سنوات .
مسز جولدفنش : وأنا لم أره مطلقا .
جولدفنش : طبعا ، لقد تزوجنا حينما كان فى لندن London . أعتقد أنك ستعجبين به . إنه خشن الأسلوب ولكنه ذو قلب ذهبى .
برسى : لقد قلت ذلك عن « بزارد » Buzzard سائقنا القديم مع أنه كان لا يفيق أبدا .
جولدفنش : ولكنى أمرت أن يطرد « بزارد » وقد طرد .
مسز جولدفنش : لقد طردته أنا .
جولدفنش : إذا كنت قد طرته ، فأنا الذى أمرتُ بطرده .
برسى : وأنت الذى أرسل إليه خمسة جنيهات !
جولدفنش : صه !
مسز جولدفنش : هل أرسلت إليه خمسة جنيهات ؟
جوادفنش : مسكين « بزارد » إن له أسرة كبيرة .
برسى : وقبل أن أنسى ، هل بلغك ياوالدى ؟

جولد فنش : ماذا ؟

پرسى : إن الناس أشاعوا فى المدينة أمس أن « كرودسن » Crewdsou صاحب مصرفك لم يعد مركزه المالى مأمونا !

جولدفنش : لا تصدق يابنى مايشاع ! إن مصرفه أحد المصارف القديمة فى المدينة

پرسى : إن هناك بعض أشياء قبيحة تؤثر فى مركزه . ولكنى أعرف أن ليست لك فيه أموال كثيرة.

جولدفنش : إلى هذه اللحظة لى فى مصرفه عشرة آلاف جنيه . لقد نصح لى « كرودسن » ببيع بعض الأسهم وقد باعها فعلا ، ثم وضعها باسمى عنده فى المصرف .

پرسى : عشرة آلاف ؟ ذلك مبلغ جسيم ! يجب ـ ياوالدى ـ أن أسحبه سريعا من المصرف .

جولدفنش : فى وقت كهذا ؟ لا ، لا يجوز إن مثل هذا التصرف الآن يؤذى مشاعره .

پرسى : ولكن هبه أضاع هذا المبلغ فماذا تعمل؟

جولدفنش : لقد ذهبت معه إلى المدرسة .

مسز جولدفنش : أعندك استعداد للتضحية بهذا المبلغ الكبير من أجله ؟ قد يحتاج إليه .

جولدفنش : أيحتاج صديق القديم؟

پرسى : والناس كذلك يشيعون أنه ربما توقف عن الدفع فى أى يوم !

جولدفنش : ياللغرابة ! ياللغرابة ! ولا ننسى أنه ذو أسرة كبيرة ! نعم يجب أن أسحب المبلغ !

پرسى : سأهتم بذلك من أجلك . سأركب عربة وفى نصف ساعة أكون فى المصرف .

جولدفنش : لاتسحب المبلغ جميعه فى الحال . ورأيى أن تقابل محامينا «بلنكنسب» Blenkinsop ولاشك أنه سيشير عليك وينصحك.

(يخرج برسى)

مسز جولدفنش : إن «بارثولوميو» Bartholomew الحذّاء جاءفىهذا الصباح إنه لم يحضر معه الايجار المطلوب منه .

جولدفنش : لا بأس من الانتظار عليه قليلا . إنه ذو أسرة كبيرة .

مسز جولدفنش : أكل انسان مدين لك أو تعرفه ذو أسرة كبيرة ؟

جولدفنش : إن دينه صغير . إنه إيجار سنة فقط ، ولا خوف ، فهو يصنع أحذية جيدة .

مسز جولدفنش : طبعا لا خوف ، مادام يدفع لك الايجار أحذية لا نقودا . حتى لقد صار لك الآن خمسة عشرة حذاء !

جولدفنش : وقد نسيت أنه سيحضر لى فى هذا الأسبوع ثلاثة أخرى. وبذلك يتم لى ثمانية عشر حذاء .

مسز جولدفنش : ولكنه أحضر معه قائمة الحساب بثمانية عشر حذاء . وهو يشكو ويقول : كيف يدفع إيجار محـــله ، إذا كان الزبائن لايدفعون شيئا ؟

جولدفنش : يجب أن أدفع له غدا . مسكين «بارثولوميو» إنه ذوأسرة كبيرة،وقد أخبرنى مرة أن ابنه متعطل لاعمل له.

مسز جولدفنش : متعطل لاعمل له ؟ كيف ؟ إن عمره ست سنوات !

جولدفنش : إن أكثر المستأجرين والسكان لم يدفعوا ماعليهمحتىالآن ، فكيف نلزمهم بدفع الأجور مادمنا لم نحصل بعدُ على الأصل ؟

(يدخل دك Dick)

دك : صباح الخير . هل حضر والدى ؟

مسز جولدفنش : لم يحضر بعد ، ولكننا نتوقع مجيئه .

دك : لقد أرسل إلى كلمة كى أقابله هنا .

جولدفنش : لا بأس فانتظر . أما أنا فذاهب إلى الحجرة المجاورة لأقابل بعض الرجال . لقد أتوا كى يدفعوا الايجار المطلوب منهم .

مسز جولدفنش : يجب أن أذهب معه ، وإلا فسوف يطلبون منه بعض المال بدل أن يعطوه !

دك : لاتتعجلى فى العودة . إننى أعرف كيف أسلى نفسى .

جولدفنش : تعالى ياعزيزتى .

(يخرج جولدفنش ، زوجته)

دك : والآن ماذا سأقول لوالدى ؟ أأخبره بأنى غارق فى الديون؟ إنه يظن أنى الآن محام أشتغل فى شركات ودوائر كثيرة . وكيف أجرؤ على مواجهته بالحقيقة ؟ كيف أخبره أنى مدين بأموال كثيرة ؟ وأنى لم أوفر أو أكسب بعد قرشا ؟ لا شك أنى سأضطر فى النهاية إلى دخول السجن !

جريجورى : (متكلما فى الخارج) ذلك كل ماسيأخذالسائق ، إذا طلب أكثر فإنى سأستدعى الشرطى .

دك : ها هو قد أتى .

(يدخل جريجورى Gregory والدك لابسا منظارا ذا اطار أسود)

جريجورى : لأنى أجىء من « شيفلد » يظن أنى لأعرف أجر عربة من المحطة !

دك : صباح الخير ياوالدى (يمد يده إلى والده)

جريجورى (غير ملتفت إلى يده) أهلا ، كيف العمل ؟

دك : حسن .

جريجورى : أكنت ولدا ممتازا ؟

دك : جدا

جريجورى : أأسرفت كثيرا فى المال ؟

دك : لا ياوالدى .

جريجورى : متى تستيقظ ؟

دك : فى الساعة السابعة كل صباح .

جريجورى : ومتى تنام فى الليل ؟

دك : فى الساعة العاشرة .

جريجورى : إذاً هات يدك (يتصافحان بالأيدى) أين عمك ؟

دك : عمى فى حجرة مكتبه. أأناديه؟

جريجورى : لا ، أجلس (يجلسان) أنت تقول : إن عملك حسن .

دك : نعم .

جريجورى : أذلك صحيح ؟

دك : أتشك فى قولى ؟

جريجورى : أنا أشك فى كل شىء ، اللهم الا ما أراه . كم قضية لديك ؟

دك : كثير .

جريجورى : إذاً قد كونت الآن ثروة ؛

دك : نعم ـ لدى كثير من المال .

جريجورى : هات يدك . كم ؟

دك : لدى خمسة جنيهات كل أسبوع .

جريجورى : أرنى هذه الجنيهات الخمسة التى حصلت عليها هذا الأسبوع .

دك : إنها فى المصرف .

جريجورى : ولكن لماذا نسيت ماقلت لك ؟ ألم أقل : أرسل إلى كل ما تدخره لأضعه باسمك فى متاجرى ؟ ومع ذلك فأنت لم ترسل شيئا !

دك : لقد اشتريت هذه السنة أثاثا للمنزل .

جريجورى : أرنى أثاثك .

دك : إنه فى منزلى . وليس معقولا أن أحمله معى دائما . كما إنى اشتريت هذه الساعة .

جريجورى : ولماذا اشتريتها ؟

دك : لأعرف بها الوقت .

جريجورى : أرنى إياها (يأخذها من يد دك ويضعها فى جيبه) ألا توجد ساعات كثيرة فى الشوارع والميادين ؟

(يدخل السيد جولدفنش هو وزوجته)

جولدفنش : آه . جريجورى ؟ كم أنا مسرور لأن أراك هنا . زوجتى . أخى

جريجورى : كيف أنت (يتصافحان) .

جولدفنش : أرجو أن تكون قد استرحت فى رحلتك .

جريجورى : نعم ـ فقد كنت أثناء السفر أجلس وحدى فى العربة .

جولدفنش : إذاً لم يكن القطار مزدحما

جريجورى : بلى ، كان مزدحما ، ولكنى أقفلت باب العربة علىّ .

(يدخل برسى)

پرسى : أهلا عمى . ألا تتذكرنى ؟ إننى « پرسى » ابن أخيك

جريجورى : ماأسرع ماتكبر ! ماوظيفتك ؟ ألك عمل ؟

پرسى : محام

جوريجورى : آه . وأنت محام أيضا ؟ هل لديك قضايا كثيرة ؟

پرسى : لاشىء حتى اليوم .

جريجورى : لاشىء ؟ لماذا ؟ إن ابنى « دك » لديه قضايا كثير ؟

پرسى : لدى « دك » . . . ؟ إنه لا ,,

جريجورى : ألاعمل لك ؟

پرسى : نعم لاشىء مطلقا . ليس لدى ماأصنع .

جريجورى : إذاً فأنت لم تكوّن ثروة !

پرسى : ولا مليما واحدا

جريجورى : أعتقد أن الشاب عندما يصل إلى الحادية والعشرين فهو رجل. ويجب أن يحصل على قوته بنفسه .

جولدفنش : وإذا لم يقدر ؟

جريجورى : وكيف لا يقدر؟ إن ابنى عندما وصل إلى هذه السن قلت له : غادر الان منزلى ، واجتهد فى أن تكون لك حياة خاصة من عملك . وقد غادر المنزل ، ثم جدَّ حتى صنع مستقبله بنفسه . إنه الآن يكسب خمسة جنيهات كل أسبوع من عمله .

دك : تقريبا .

جولدفنش : ولكنك قد جعلت له هدايا قيمة .

جريجورى : خمسين جنيها فى عيد ميلاده كل سنة

دك : ولكن ياوالدى .....

جريجورى : طبعا لا علم لك بها . إنى أضعها لك كل سنة فى متاجرى لتتكاثر .

دك : لكن يا والدى .....

جريجورى : لقد كتب إلى مرة فى أول سنة ترك المنزل فيها يطلب نقودا ، كتب يقول : « والدى العزيز ، ليس لدى نقود ، أريد شيئا لآكل » ولكنى فى الحال كتبت له : « عزيزى دك ، لقد سمعت هذه القصة من قبل ، والدك » ومن هذا اليوم لم يكتب إلى .

جولدفنش : مسكين « دك » . وهل يحبك بعد ذلك ؟

جريجوري : وماذا تعطى أنت لابنك ؟

جولدفنش : لا أحفظ الحساب .

پرسى : عند ما أحتاج إلى شيء أطلبه من والدى فيعطيه لى .

جريجوري : ما شاء الله ! هذه طريقة بديعة لبقاء كل عمل ونموه ! ألا تحفظ الحساب ؟ ألا تعرف كم أنفقت على ابنك حتى الآن ؟ فى اليوم الذى ولد فيه ابنى فتحت له حسابا معى فى سجل حسابى وأستطيع أن أخبرك كم كلفنى بالمليم . لقد كلفنى ستمائة جنيه وخمسة عشر قرشا ، وطابع بريد .

پرسى : طابع بريد ؟ !

جريجوري : نعم ، الطابع الذى وضعته على الخطاب الذى تكلمت عنه . والآن أريد أن أستحم . أين أجد حجرتى ؟

مسز جولدفنش : (تدق الجرس) سيريك الخادم الطريق .

جريجوري : دك . لم أرك منذ مدة . ولهذا ستخرج معى الليلة لتتناول عشاءك . أين أرخص مطعم ؟

دك : شكرا ياوالدى . ولكنى مشغول الليلة .

جريجوري : فى عمل ؟

دك : نعم .

جريجوري : إنى فرح لسماع ذلك . سأتناول عشاء الطعام مع عمك الليلة : وغدا سآتى لأرى أثاث منزلك . ومادمنا قد تراءينا فإنى أودعك .

(يخرج دك)

جريجوري : انظر كيف ربيته وهذبته ؟ (يخرج جريجورى)

جولدفنش : مسكين دك ! أما كان يجب أن تخبرنى عن حال ابن عمك يا پرسى ؟

پرسى : لم أكن أعرف أنا نفسى شيئا من ذلك .

جولدفنش : إن هذا الولد بطل . كم يكون الانسان مخطئا ! لقد عرفت الآن لم كان فى كل الأوقات السابقة نصف متوحش !

(يدخل جويس)

جويس : السيد « لوريمر » Lorimer وابنته .

(يدخلان)

جولدفنش : عزيزى لوريمر لم أرك منذ زمن طويل . ماذا وراءك ؟ إن الاضطراب يبدو عليك .

لوريمر : أريدأن أتحدثإليك على انفراد .

جولدفنش : رغبتك . « ماريين » أريد أن ننفرد هنا قليلا .

مسز جولدفنش : مشيئتكما . نذهب نحن إلى الحجرة المجاورة .

(تخرج مسز جولدفنش ، تصحبها « لوسى » و « پرسى »)

جولدفنش : استرح ياصديقى . هات ماعندك . إن المرض باد عليك .

لوريمر : لم أنم منذ ثلاث ليال ! لقد مرت ستة أسابيع دون أن أتلقى أخبارا جديدة عن سفينتى ، « نجمة الصباح » The Morning Star.

جولدفنش : سفينتك ؟ أهذا كل مافى الأمر ؟

لوريمر : ياعزيزى إن ذلك معناه الحياة أو الموت لى .

جولدفنش : ولكن حياتك أوشرفك لايتوقفعلىوقت وصولسفينتك.

لوريمر : آه إنك لم تفهم قصدى . إن كل ثروتى تضيع بضياعها . إنها محملة بالزيت . لقد رفض كل مكتب أن يؤمن عليها . واذا لم أقدربعد غد على دفع مبلغمؤكد وفاء لما علىّ منالتزامات وأجور ، فإن الكارثة ، لابد واقعة .

جولدفنش : أيكون الأمر سيئا إلى هذا الحد ؟ وما المبلغ الذى تحتاج إليه ؟

لوريمر لقد جمعت كل ما أقدر عليه . والآن ينقصنى خمسة عشر ألف جنيـــه .

جولدفنش : خمسة عشر ألف جنيه ؟ هذا مبلغ لاقيمة له .

لوريمر : عند ما يكون فى اليد لا يساوى أى شىء ، وعند مالا يكون فى اليد يساوى كل شىء .

جولدفنش : إن مثل هذا المبلغ عندى ، ومالى هو مالك . ألسنا صديقين قديمـــين ؟

لوريمر : أتعنى أنك سوف تقرضنى هذا المبلغ ؟

جولدفنش : من غير شك .

لوريمر : لا ، لا محال أن أستغل كرمك وإخلاصك . ومن أين أرد إليك مالك إذا غرقت سفينتى ؟

جولدفنش : ولـكنها لن تغرق . سوف تعود إليك كاملة سليمة . لقد كانت الرياح فقط ضدها ، وهذا ما أخرها . والان دعنى أنظر . إن لدىّ الان فى المصرف عشرة آلاف . لو استطعت أن أبيع فى الغد بعض الأسهم لأمكننى أن أقدم لك المبلغ جميعه .

لوريمر : لا أدرى ياعزيزى كيف أعبر عن شكرى لك . حقا إن الأصدقاء الأقدمين كنز ثمين !

جولدفنش : انتظرنى لحظة . يجب أن أرسل برقية .

لوريمر : وأنا سأشترى صحيفة أخرى ، فلعنا نجد أخبارا جديدة عن السفينة .

(يخرج جولدفنش ، فيدخل پرسى)

پرسى : أأنت خارج ياسيدى لوريمر ؟
لوريمر : نعم . أريد أن أشترى إحدى صحف المساء .
پرسى : أريد أن أقول كلمة واحدة ، لو كان لديك وقت .
لوريمر : على الرحب والسعة . ولكن أتأخذ وقتا طويلا ؟
پرسى : كلا ، وأستطيع أن أقولها فى جملة . إنى أحب ابنتك . وأريد أن تكون زوجتى . فهل تشرفنى بهذه الصلة ؟
لوريمر : عزيزى برسى . ماذا تنظر أن أقول ؟ لا سعادة لابنتى أرجوها فوق هذا . إنك تشبه أباك ، ويقينى أنك تكون لها خير زوج ، بيد أنى اليوم لا أقدر أن أقرر شيئا .
پرسى : أأنتظر رأيك غدا ؟
لوريمر : ربما ، كل ما أستطيع قوله اليوم هو أن تفعل كما أفعل ، فترجو ، ومعذرة فإنى أريد أن أشترى الصحيفة .

(يخرج لوريمر)

پرسى : رجل كبير ، ولكن شأنه عجيب ! أيفكر فى صحيفة مسائية أكثر مما يفكر فى مستقبل ابنته ؟

(تدخل لوسى)

لوسى : أأنت هنا وحدك ؟
پرسى : نعم .
لوسى : كنت أظن والدى هنا .
پرسى : سوف يعود بعد دقائق . إنه يشترى صحيفة من الخارج .
لوسى : صحيفة أخرى ؟ رباه لا أقدر أن أفهم السر ! إنه يعيش منذ الأسبوع الماضى على الصحف !
پرسى : أخبرينى يا «لوسى» ألديك أى سبب ترجحين به أن والدك

يفكر فى الزواج ثانيا ؟

لوسى : والدى ؟ لا ! وأى شىء أثار هذه الفكرة فى رأسك ؟

پرسى : حديثى معه .

لوسى : حقا ؟ عن أى موضوع ؟

پرسى : أخبرته أنى محب ، وأنى أريد أن أتزوج .

لوسى : وماذا قال ؟

پرسى : قال : كل ما أستطيع قوله اليوم هو أن تفعل كما أفعل فتبرجو .

لوسى : ولكنْ ليس كل إنسان يفكر فى الزواج .

پرسى : وأنت ؟ ألم تفكرى فى ذلك أبدا ؟

لوسى : ليس لدى وقت للتفكير فى شىء كهذا .

پرسى : ولكن أيمكن أن آمل ؟

لوسى : كيف أقدر أن أخبر ؟ إننى لا أعرف السيدة .

پرسى : أما قالت زوجة أبى لك شيئا .

لوسى : بلى ، تكلمنا طويلا فى نواح شتى .

پرسى : ألم أكن فى ناحية من هذه النواحى الكثيرة ؟

لوسى : دعنى أفكر !

(يدخل جريجورى)

جريجورى : لا بأس ، أشعر براحة بعد الاستحمام . آه ، أأننا فى الطريق ؟

پرسى : لا ياعمى ، إنك فى المنزل .

جريجورى : (محدقا فى لوسى) ومن هذه الفتاة الجميلة ؟

پرسى : الآنسة « لوسى » ابنة السيد لوريمر .

جريجورى : كيف حالك أيتها الفتاة ؟ ألديك عمل ؟ أتشتغلين فى عمل ! ؟

(يدخل جولدفنش وفى يده برقية)

جولدفنش : هذه برقية طيبة ! لقد بعت بعض الأسهم فى سبيل الحصول على مبلغ من المال . أسرع يابرسى . خذ عربه وتسلم المبلغ ثم ضعه فى مصرفنا حالا .

برسى : مصرف « كريد سن » ؟

جولدفنش : نعم ـ فقد احتاج إلى سحب مالى منه غدا .

برسى : ولكن حسابك ....

جولدفنش : أسرع يابنى أسرع

برسى : مشيئتك !

(يخرج برسى)

جريجورى : أتقول . إنك بعت بعض الأسهم ؟ أتخشى هبوط الأسعار فى السوق؟

جولدفنش : أبدا ، وإنما أريد المبلغ .

جريجورى : لماذا ؟ أأنت فقير أم فى حاجة ؟

جولدفنش : كلا . إن صديقى الوحيد فى ظرف سيء . وقد وعدته بالمساعدة

جريجورى : أسوف تعطى هذا المبلغ لصديق ؟ وماذا سيرهن لك فى مقابل هذا ؟

جولدفنش : ماذا سيرهن لى ؟ لاشيء .إن إقراض المال بفائدة أو رهن ليس من عملى .

جولدفنش : لقد أخبرتك أنه صديق . لن يحتاج للمبلغ أكثر من يوم أو يومين وعند ماتصل سفينته سيرد إلىّ ما أخذ .

جريجورى : أعرف هذه السفينة . لن تصل أبدا .

جولدفنش : لقد أخبرتك أنه صديق !

جريجورى : أعرف مثل ذلك الصديق ، ومن لا يعرفه ؟ لقد تسبب فى شقاء

أناس كثيرين ، ولكنى لم أصغ إليه . لقد أوصدت جيبي دونه وقلت : لا ، لقد سمعت بهذه القصة من قبل ، فأسمعنى شيئا جديدا .

جولدفنش : أقلتَ ذلك إلى صديق ؟

وقلت : أأنت صديق ؟ قال : نعم . قلت : أأنت فى حاجة إلى مالى ؟ قال : نعم . قلت : إن الرجل الذى يحتاج إلى مالى ليس بصديق المخلص، وإنما هو صديق نقودى ، فابتعد عنى .

جولدفنش : وما حاله الآن ؟

جريجورى : وماذا يهمنى أنا من حاله ؟ لست أعرف عنه ولا عن غيره شيئا . كل ما أعرفه فى الحياة هو أنى جمعت من عملى مائتى ألف جنيه . وأنى أصبحت فى الحياة أساوى مائتى ألف جنيه !

جولدفنش : ولكنى لا أقدر أن أرى الأشياء بمنظارك ، ولا على الضوء الذى تراها به . إننى الآن فى خريف الحياة ، ولا زلت أنظر إلى الأشياء بعين الطفولة، هذه العين المُحبة الخيِّرة . لقد اشتغلتُ بجد متواصل منذ ثلاثين عاما ، ولقد بارك الله عملى فنما وتفرع ، حتى أصبحت ذا ثروة عظيمة .

جريجورى : أتقول : إنك أصبحت ذا ثروة عظيمة ؟

جولدفنش : ربما لم تكن عظيمة كثروتك . لقد جاء فى الكتاب المقدس : « عمل حسن أن تكسو العارى ، وتطعم الجائع . حينما تكون غنيا ألق بخبزك فوق المياه بالبحار ، وسوف تجده بعد أيام كثيرة » .

جريجورى : ياللغباء ! أتصدق كل إنسان ؟ أكل طالب أو متصنع يجعلك تصدقه ؟ إن رأسك فارغ كقلبك !

جولدفنش : أنت مخطىء يا أخى . إننى أكبر رجل أنانى ، فأنا لا أقدر أن أستمرىء الطعام أو أشتهيه ، إذا تصورت أن هناك شخصا لا يملك طعاما يأكله . وذلك التصرف ليس شعورا نحو الآخرين وإنما هو أنانية منى !

جريجورى : ماهذه الكلمات الغريبة ؟ وهل فى الدنيا من لا يجد طعاما كافيا ؟

جولدفنش : آلاف ! ولمَ أذهب بك بعيدا ؟ لقد قابلت أمس فى « بكادلى » Piccadilly شخصا فقيرا لم يذق طعاما منذ خمسة أيام، خمسة أيام كاملة ياجريجورى . تصور !

جريجورى : من أخبرك بهذا ...؟

جولدفنش : أخبرنى هو نفسه !

جريجورى : وأنت أعطيته نصف شلن ؟

جولدفنش : أعطيته شلنين .

جريجورى : وهو قد سخر منك فى أعماقه ! إن قصته مكذوبة . نعم - وإلا من يمكنه أن يعيش خمسة أيام من غير طعام ؟

جولدفنش : هل جربت ؟

جريجورى : لم أجرب ، ولكن هذه هى الحقيقة . ورأيى أن كل من لا يجد طعاما يستحق أن يظل بدونه ! إنه لا يدعولك إلا إذا أعطيته بعض الخبز . ذلك الرجل يأتى من « شيفلد » وأنا أعرفه ؟

جولدفنش : أتعرف كل إنسان ؟ يخيـــل لى أنك لا تعرف أى إنسان يا جريجورى . عند مايطلب مساعدتك صديق كريم ، فإنك بدل مساعدته تقول : لقد سمعت هذه القصة من قبل فأسمعنى شيئا جديدا !

وفى الشارع تنهر السائق المسكين ، وتقول : إذا طلب أكثر ،

فإنى سأستدعى الشرطى ! وابنك ! ابنك الوحيد الذى طردته من منزلك ككلب ، يجوب الشوارع هنا ضعيفا جائعا ، وإذا استغاث بك والجوع يعذبه تكتب إليه : كن بعيدا ، لقد سمعت تلك القصة من قبل وأخيرا .... لا تعرف من الحاة إلا أنك جمعت مائتى ألف جنيه ، وأنك أصبحت تساوى مائتى ألف جنيه .

أنت مخطىء ياجريجورى ، نعم ، ولا تساوى شيئا ؛ لأنك لا تكون شيئا أكثر أو أقل من ....

جريجورى : أكثر أو أقل من ماذا ...؟ استمر . استمر !

جولدفنش : (يدنو من جريجورى ثم يضع يده على كتفه) أخى .

جريجورى : حسن ، هل انتهيت ؟

جولدفنش : نعم جريجورى . اعف عنى يا أخى . لقد قلت تقريبا أكثر مما أقصد .

جريجورى : أعفو عنك ؟ وهل قلتَ شيئا ؟ البس قبعتك ودعنا نقضى الليلة فى المسرح

جولدفنش : بكل سرور . سوف نقضى ليلة سعيدة هناك .

جريجورى : ولكنا على شرط أن نتقاسم النفقات ؟

جولدفنش : نتقاسم النفقات ؟

جريجورى : نعم ، أنا أدفع للمسرح ، وأن تدفع للعشاء .

(يخرج جريجورى)

لوسى : ما أكثر إنسانيتك ! لم أطق أن أحمل نفسى على سماع هذا الحوار !

(تركع بجانب جولدفنش ، وهو جالس فى كرسى)

جولدفنش : لقد كنت منفعلا كثيرا ، حتى لقد نسيتُ نفسى.

لوسى : نعم نسيتَ نفسك ، وهكذا أنت دائما ! لتستمر ناسيا نفسك إن السماء لن تنساك أبدا .

جولدفنش : ولكن أخى محق ياعزيزتى . إن هناك كثيرا من الفاشلين فى الحياة،وبعضا من البؤساء ،لايحبون أن يعملوا ، ويفضلون أن يظلوا حملا على ذوى القلوب الرحيمة ، مادامت لديهم حيل وكلمات يستفزون بها هذه القلوب .

لوسى : لا ، لا ... إذا قدر لنا أن نملك جميع مانستحق فقد نصبح فقراء . نعم ، لأن المال الذى نهيم به لانملك منه شيئا . وما خصنا الله بالمال لأننا أحق به من غيرنا . ولكن لنسلمه إلى مستحقيه من عباده إذا احتاجوا إليه ! فى كل يوم بعد طعام الصباح أفتح النافذة وألقى بفتات الطعام للعصافير . إنها لاتشكر أبدا . عند ما تأخذ من الفتات ما يكفيها ، أو عند ما أمر بجانبها أراها تطير جميعها ، اللهم الا العصفور الشره الأكول فإنه يحاول أن يعضنى . ولكنى لا أنتظر شكرها . إنها مخلوقات الله ، والله قد أعطانى الفتات . إن عندك عصافير آدمية ، كهذه العصافير التى تتردد على زيارتى كل صباح ، فلنستمر على إطعامها والبر بها ـ مهما يكن من أمر .

(ينهض كلاهما . جولدفنش يساعد لوسى التى تخرج)

جولدفنش (منفردا) : ويح الانسان منا ! كم يكون مخطئا ؟ لطالما ظننت هذه الفتاة فارغة القلب ، بينما هى ملاك ! ملاك كامل !!

(يدخل جريجورى)

جريجورى : هذا خطاب لك (يسلمه خطابا)

جولدفنش : خطاب مزعج ! لقد كتب على غلافه : سريع هام !
(يفتح الخطاب باهتمام ، ثم يقرأ فيه صامتا)

جريجورى : ليس عليه طابع بريد ! سوف يكلف زوجتك عشرة مليمات ! لا أقبل أن أتسلم خطابات كهذا . وسريع هام ؟ إنى أستطيع التنبؤ بما فى هذا الخطاب السريع الهام !

جولدفنش : يا للغرابة ياأخى !

جريجورى : ماذا جد ؟

جولدفنش : وأنت تزعم أنْ ليس فى الدنيا أناس أشقياء ؟ إن فى هذا الخطاب مأساةً دامية ، فأصغ (يطالع فى الخطاب)
« وأخيرا صممت أن أكتب إليك لعلمى بقلبك الكريم الرحيم » .

جريجورى : خطاب شِحَاذة واستجداء ! إنى أعرفه !

جولدفنش : (يطالع فى الخطاب) « إننى الآن خال من جميع الأعمال » .

جريجورى : شخص كسلان !!

جولدفنش : (يطالع فى الخطاب) « والدى أعمى ، وأمى كسيحة » .

جريجورى : طبعا ، وماذا يجب أن يكون أبواه ؟

جولدفنش : (يطالع فى الخطاب) « وزوجتى تحتضر » .

جريجورى : أحسن شىء تقدر أن تعمل !

جولدفنش : (يطالع فى الخطاب) « طفلنا يبكى ويصيح من أجل الخبز » .

جريجورى : خبز لطفل ؟ وأين زجاجته « بزازته » ؟

جولدفنش : (يطالع فى الخطاب) « جيمس الصغير ٦ خلف شارع مولت . الدور الخامس فى نهاية سلم » ـ رباه ، ما أشقى هذه المخلوقات التى تعيش فى نهاية سلم !

جريجوري : لاشك أن ذلك متعب للوالد الأعمى !

جولدفنش : وكذلك الأم الكسيحة (يطالع فى الخطاب) « أجب بخطاب فقط ، مع التفضل بالدفع لساعى البريد » - شخص شقى ! إنه لايرغب فى أن أرى كم هو بائس فقير ! لاشك أن لديه كثيرا من عزة النفس ياجريجوري .

جريجوري : ماذا ؟ أتصدق هذا الخطاب ؟

جولدفنش : إن وجود والد أعمى ، وأم كسيحة حالة من الشقاء الحقيقى ،

جريجوري : إنى أعرف ذلك الوالد الأعمى ، وتلك الأم الكسيحة، كلاهما يأتيان من « شيفلد » !

جولدفنش : والزوجة المحتضرة ؟

جريجوري : تأتى من « شيفلد » إنهم جميعا يأتون من « شيفلد » !

جولدفنش : ويحك ! لا تتأثر بصور الشقاء ، ولا تنفعل لأنات البؤساء !

جريجوري : إنى أصدق فقط ما أرى . أصغ . سأراهنك على أى شىء

: تريد بأن كل ما فى هـــذا الخطاب ليس إلا مجرد تمثيل ؛ ومحض اختلاق !

جولدفنش : أراهنك !

جريجوري : وأنا أراهنك !

جولدفنش : على أى شىء نتراهن ؟

جريجوري : على عشائنا فى مطعم « سمبسن » Simpson's

جولدفنش : إذاً بدل الذهاب إلى المسرح نركب عربة ونذهب إلى هناك

جريجوري : كلا ، لن نذهب إلا بعد العشاء .

جولدفنش . يالله ! لا أقدر أن آكل شيئا بينما أولئك الأشقياء جائعون . دعنا ننادى عربة .

جريجورى : ألا توجد سيارات عامة توصل إلى المكان ؟

جولدفنش : ولكن العربة أسرع .

جريجورى : لقد تراهنا !

جولدفنش : أنا أقول : إن كل شيء فى الخطاب صحيح .

جريجورى : وأنا أقول : إنه قصة مفتعلة .

جولدفنش : هات يدك .

جريجورى : من يخسر يدفع الرهان .

جولدفنش : عشاؤنا فى مطعم « سمبسن » ؟ سوف أكسب .

جريجورى : سوف تخسر . وسوف أقتصد أنا ثمن العشاء الليلة !

(يخرجان ، بينما جولدفنش يبتسم ، ويفرك كلتا يديه)

نهاية الفصل الأول

محمد على الملكية عبد العزيز عنبو

ملحوظة

تمثيلها ممنوع إلا باذن من المعرب .

ليـــلة فى النـادى

العلامة الشيخ طنطاوى جوهرى

كانت دعوة يوم الخميس الثانى من شهر مارس سنة ١٩٣٩ ، فدلف إلى النادى عدد غير قليل من كبار المتخرجين فى دار العلوم .. وأخذنا نسمر فى رفق وأناة بين قديم وحديث ، ننتظر ، ومن ننتظر ؟ ننتظر شيخا من كبار أبناء الدار يحاضرنا فى «الغذاء الصحى» . شيخ يحاضر فى الغذاء الصحى، لا نطاسى كبير ، ولا طبيب بارع . أمر عجيب ! وحديث غريب !

مكثنا والأفكار تستبق إلى أذهاننا ، وتتوارد على خواطرنا بين جزر ومد، وارتفاع وانخفاض ، فإذا خطوات وئيدة فى قوة ، وحركات هادئة فى صبوة، تتقدم بصاحبها إلى ردهة النادى فيبدو شيخ يحمل على ظهره سبعة وسبعين عاما ما أحوجت سمعه إلى ترجمان ، ولا غضت من رونق محياه ، فما يضر البدر أن امتد به الزمن ، وطالت عليه الحقب ، فكان استقبال ، وكانت حفاوة بالعالم الفذ الفيلسوف المصرى الشيخ طنطاوى جوهرى ! فجلس وهو يرسل ابتسامة صافية من وجه مشرق ، وطلعة نضيرة ، ووجه مشرب بالحمرة، تحيط به هالة من لحية بيضاء ، كان صائما فقدمت إليه مائدة ، لا تظن أن عليها - كما فى عرفنا - ما لذ وطاب . لا بل كل ما عليها حبات من (الطماطم الحمراء) طلبها الفطوره، فكانت براعة استهلال لمحاضرته .

وقعد يستغفر ربه بعد صيامه ، ويسبحه بعد صلاته . فقام رئيس النادى الأستاذ محمد نجيب حتاته يقدم معروفا ، ويصف موسوما ، وعقبه الأستاذ عبد الحميد حسن فكشف عن بعض نواحيه ، وأبان عن مراميه ، وأعلن عن

ترشيحه لجائزة نوبل للسلام التى سأحدثك عنها فيما بعد، ثم وقف المحاضر بين التصفيق والتهليل.

نبذة عن المحاضرة

حكى أنه كان يشكو آلاما عدة من نزف يعترى الشيوخ فيقضى على حياتهم، ومن وجع المفاصل (الروماتزم) ومن أملاح تثقل خطواته، ومن ضعف فى الذاكرة ينسيه الكثير من أعماله، ومن اضطراب فى الأعصاب يقفه عن كثير من رغباته، ومن قبض وإمساك، يجعله محصورا لا يلذ له طعام ولا شراب، ومن الغريب أن بعض هذه الأمراض امتدت به من شبابه إلى شيخوخته حتى أحيل إلى المعاش، فانكب على تفسير القرآن حسبة لوجه الله، ومزج علوم الأمم حديثها وقديمها بالقرآن، رابطا كل ما جد من مختلف النظريات فى مختلف الفنون، بمعانى آى الله، كاشفا عن بعض أسرار كتابه، فكانت له نظرة عميقة فى الطب، لا من الوجهة الفنية فحسب، بل من الوجهة الفلسفية الصوفية الواردة فى أبحاث كثير من مثقفى الفكر، المشغولين بالنظر فى مناحى الحياة. استكناها لأسرارها، وتحقيقا لبعض نوازعها. هذا إلى روحانية الأستاذ، وصفاء نفسه، فكان أن عدل عن أكل الخبز المعتاد، وأقبل على خبز مأخوذ من المادة المعروفة (بالسن) أو من القمح من غير أن ينخل، ثم أقبل على الخضر يأكلها بعد تعقيمها بالماء المالح من غير إنضاج، بل لقد حكى أنه يأكل الدبّاء (القرع) من غير إنضاج إذ من نظرياته أن ما يدخل النار من الخضر يموت، ويفقد جميع ميزاته.

ومن نظرياته تجنب السكر والملح وما يتولد منهما، فهو لا يأكل الأطعمة المحلاة بالسكر، ولا يضع على ما يأكل ملحا، وينصح بترك السمن والاستعاضة عنه بالزبد، على أن الزيت يفضل الاثنين، ومن الغريب أنه يفضل ترك اللبن إلا إذا أخذ مباشرة من الثدى إلى الفم، لم يتعرض لجراثيم الجو. وتعاطيه على

الحالة الراهنة التي نستعمله عليها الآن من غير إغلاء - أفضل من الإغلاء ، وذلك بناء على تجاربه الخاصة ، وتجارب بعض العلماء .

وأنواع السموم عنده مما يتناوله الناس عادة ثلاثة : الخمر والصافى منه سم صاف ، ثم الشاى ، ثم القهوة ، وينصح بتعاطى الحلبة بأية طريقة نيابة عنهما ، ولا شك أن الدخان عنده من المحرمات ، وأنواع الفواكه له محببة ، وأولها فى القيمة الغذائية البرتقالى .

هذا وقد قدم نفسه برهانا على صحة ما يقول؛ فإنه يعيش على هذه الطريقة، وقد بلغ السابعة والسبعين من عمره ولا يشعر بأى ضعف فى صحته ، متمتعا بتفكير صحيح ، وذاكرة قوية ، وقوة جسمية ، ولقد أشار بطريقته هذه على بعض الأفراد ومن بينهم الأطباء فاتبعوها فأتت بأطيب الثمرات ، وعادوا أصحاء بعد مرض اعترى بعضهم فأقعدهم عن العمل ، ثم أصبحوا منعمين بحياة طيبة .

الشيخ طنطاوى

وتقدير الملوك والعلماء فى الشرق والغرب لأبحاثه

وقعت تحت يدى بعض تقاريظ لملوك الشرق، وعلماء الغرب لأبحاثه العميقة، رشحته لجائزة نوبل للسلام ، أحببت أن أضع بعضها تحت أعين قراء الصحيفة ليعرفوا عن أستاذهم من طريق العلماء فى الشرق وفى الغرب ما لم يعرفوه عنه وهو بين ظهرانيهم . وهذا مأخذ يؤخذ على المصريين جميعا من غير شك.

نشر الأستاذ ٢٨ كتابا توجها بكتابين « أين الإنسان » و « أحلام فى السياسة » كانت لها شهرة فائقة بين علماء أوربا ، وإليك بعض تقاريظ ملوك الشرق وعلماء أوربا وجمعياتها :

أرسل إليه حضرة صاحب الجلالة رضا شاه بهلوى رسالة بقلم معالى وزير

خارجية إيران ، وقد ذهب معالى الوزير المفوض لإيران إلى الشيخ طنطاوى فى منزله ، وسلمه الخطاب ؛ تكريما له ، واعترافا بفضله . وجلالة الإمبراطور لم يشكر الأستاذ عفوا ، بل لقد رفع له تقرير مؤرخ ٤ / ٥ / ١٤ عن قيمة كتاب « أحلام فى السياسة »

وكذلك بعث إليه خطاب تقدير حضرة صاحب الجلالة ملك العراق .

وجاء فى كتاب مفكرى الإسلام للبارون (كرادى فو) فى المجلد الخامس منه :

وصف إجمالى للنهضة المصرية الحديثة ، ثم قال : —

« وللشيخ طنطاوى جوهرى القدح المعلى نذكره هنا قبل الكلام على كتابه « أين الإنسان » ثم قال : « إننا سنبين ثلاثة المظاهر الرئيسية لتطور مصر الحديث » ثم كتب أمام المظهر الثانى « العناية التى أظهرها رجلان من رجال الدين وهما الشيخ محمد عبده ، والشيخ طنطاوى ، فى تمثيل الدين الإسلامى وتأثيره فى النفوس للنهوض بها إلى التطور الحديث »

وجاء فى هذا الكتاب فيما بين صفحة ٢٧٥ وصفحة ٢٨٤ فى الجزء الخامس عن كتاب « أين الإنسان » بعد أن قرظ تفسير الأستاذ للقرآن الشريف أحسن تقريظ قال : —

« وقد نشر الشيخ طنطاوى كتاب « أين الإنسان » المطبوع سنة ١٩١١ الذى قرظه الأستاذ « سانتيلانه » الطليانى العالم الكبير فى المجلة الشرقية برومه لسنتها الرابعة . وللأستاذ كتب أخرى مثل « نظام العالم والأمم » و « نهضة الأمة وحياتها » وكتاب أين الانسان هذا وضعه المؤلف بطريقة رواية فلسفية سياسية ، وهو فى هذا يشابه الفارابى من حيث أصل الفكرة ، وابن طفيل من حيث الأسلوب والمنهج ، فجمع بين دقة الفكر ، وجمال الأسلوب وغيرهما » .

ثم قال : « الأستاذ فى هذا الأسلوب يذكرنا بأساليب علمائنا وأدبائنا

فى أوروبا مثل « توماس موروس » و « كامبانيلا » ومعاصرنا « هازرينز » .

ثم عرج على وصف الأستاذ للجمعية الانسانية وصفا لا يشرفها، وأنه يتمنى أن تكون الدول جميعها مؤسسة نظامها على الحب العام، وتبادل المنافع ، ثم وازن بين فكرة الأستاذ طنطاوى وفكرة « دارون » الإنكليزى الذى قفى على آثاره فيها « نيتشه » الألمانى ، وهى إبادة الضعفاء وغلبة الأقوياء . وندد المؤلف بالدول لأنها ثبتت أمرها على أساس تبادل الحرب، وتخريب المدن، وقعقعة السلاح، تمشيا مع نظرية الآخرين .

وبعد أن اقتبس أمثلة تمثل سمو خيال الأستاذ وتوضح المقصود من محاوراته التصويرية قال :

« فمثل هذا الكتاب المملوء حكمة وعلما، الغزير المادة، السامى الفكرة، الناتج عن تفكير عميق ، وبحث يقل نظيره — يدعو دعوة حارة إلى سعادة الأمم أجمعين ، ويدعو أيضا بالحماسة الشديدة إلى التجديد العام . وهو مفخرة لمصر والإسلام، وقد قدم هذا السفر الجليل إلى مؤتمر الأجناس المنعقد فى لندن فى شهرى يوليو وأغسطس سنة ١٩١١ »

تقريظ الفيلسوف سانتيلانه الايطالى

وهذا بعض ماجاء فى مجلة العلوم الشرقية للأستاذ سانتيلانه الإيطالى فى سنة ١٩١١ تقريظا لكتاب « أين الإنسان »

« ليس من يجهل بمصر الشيخ طنطاوى جوهرى المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية (دار العلوم) فهو ذلك الكاتب النحرير ، والمحرر الشهير، ذلك الإنسان ذو العقل الكبير، بل هو أحد رؤساء الحركة السياسية الاجتماعية ، التى انتشرت فى كافة طبقات الشعب الإسلامى تحت اسم الجامعة الوطنية . تلك الحركة ترمى إلى الاستقلال السياسى، والإصلاح الدينى، طبقا لمنهج مرسوم بعيد المدى، مشوب بشىء من الإبهام ، وذلك بقصد التوفيق بين العلم وما جاء به القرآن الكريم . . . ،

إلى أن قال : فما دون فى هذا المعنى كتابان جديران بالذكر ، وهما « نظام العالم والأمم » و « نهضة الأمة وحياتها » .

وآخر ماصدر من مؤلفات ذلك العلامة الكثير الآثار هو كتاب « أين الإنسان » ذلك الكتاب الحديث الذى انتشر منذ عهد قريب ، وهو الذى أردنا التعريف عنه أخيرا ... ثم قال « والحق يقال إنه لعمل جليل عظيم فى قالب اجتماعى سياسى ، ليس موجها إلى المصريين فقط ، بل للعالم كله ؛ لأن المسألة التى يريد حلها هى مسألة العالم بالإجماع .

وقال فى صفحة ٧٧٣ بعد أن لخص الكتاب مانصه :

« هذا كتاب الشيخ طنطاوى جوهرى الذى أردنا أن نوسع له فى مجلتنا ، وماهى بالعادة المتبعة لديها ؛ لأن ذلك الكتاب من الكتب العظيمة الدالة فى الوقت الحاضر على مبلغ أفكار وشعور الطبقة الراقية الاسلامية .

تقريظ عالم ألمانى :

جاء فى خطاب العلامة يوسف شخت الألمانى مانصه :

جناب الأستاذ المحترم الشيخ طنطاوى جوهرى دام بقاؤه !

إنا تلقينا بيد السرور من جناب الأستاذ « جيفرى » نسخة التقاريظ لكتابكم المسمى « أين الإنسان » وقرأناها بكل ماتستحقه من الدقة واليقظان ، مع أنا لم نحتج إلى تقريظ لكتاب قد اشتهر بين المستشرقين لما فيه من الصحة واليقين ، وكنا نعرف بناء أفكاره مع حرمان معرفة معماره — فإنا الآن مسرورون جدا بفرصة المكاتبة لجنابكم ، ونسأل الله الزيادة بالتعارف الشخصى ، فى وقت قريب إن شاء الله »

وبعد ذلك عرض لفكرة الأستاذ « جيفرى » فى ترجمة الكتاب إلى اللغة الألمانية ، فأبان له أن للمسألة وجهين : علمى وعملى ، أما من حيث الأولى فالمستشرقون الألمان ليسو فى حاجة إلى تقريظ للكتاب ولا تعريف به فهو

معروف عندهم مشهور فيما بينهم، أما من حيث الوجه العملى فالأزمة العالمية لها أثرها ، وتاريخ هذا الخطاب ٣ — ٥ — ٢٤

والأستاذ شخت هو أستاذ اللغات الشرقية بجامعة كونسبرغ بألمانيا.

العلامة جيب الانكليزى :

وكذلك قرظه العلامة جيب أستاذ اللغة العربية فى كلية الآداب الشرقية فى جامعة لندن فى كتاب أرسله إلى الشيخ طنطاوى ، بعد أن أرسل إليه الأستاذ جيفرى أيضا يسأله عمن يتولى ترجمة الكتاب « أين الانسان » إلى اللغة الإنجليزية .

الجمعية الأسيوية الملكية :

وقرظت الجمعية الأسيوية الملكية كتاب « أحلام فى السياسة » بقلم العلامة مارغيليوس سنة ١٩٣٧ وقد وازن هذا بين الشيخ طنطاوى وكانت الألمانى فى السلام العام فقال : إن عنوان هذا الكتاب يذكرنا بكتابين نشرهما العلامة كانت الألمانى فى السلام العام ، فإنه وإن كان عالما بعلمى الرياضة والفلك لم يستعملهما فى السلام العام . أما الشيخ طنطاوى جوهرى فإنه قد أدخل فيه هذين العلمين ، وأضاف إليهما علم النبات والكيميا والتشريح وعلم النفس ، فهذه العلوم كلها قد جعلها المؤلف وسيلة توصل بها إلى حل مشكلة السلام العام .

العلامة كرستيان جوبسون لكمبرغ : حين كان يحاضر فى جمعية الشبان المسلمين وقد نشر المقطم عنه فى عدد مساء سبت ٨ يناير سنة ١٩٣٨ ما نصه :

وختم محاضرته بالإشادة بآراء العالم الفيلسوف الشيخ طنطاوى جوهرى فى هذا الموضوع ، وقال: إنه حضر إلى مصر هذه المرة خصوصا للتشرف بمعرفته شخصيا بعد ما عرفه عن بعد ، وترجم كتابيه « أحلام فى السياسة » ، « وأين الإنسان » وبين أن الكتاب الأخير يبحث فى أعقد المشكلات العالمية

بحثا عجزت أوربا إلى اليوم عن الإتيان بمثله » قال . . . « إنى أعلن أن خير كتاب أخرج للناس فى هذا الشأن هو كتاب « أين الانسان » الذى يرسم للعالم بأسلوب فلسفى عميق طريقه المستقيم إلى السلام الدائم ، الذى رسمه الله فى قوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير »

العلامة كريستيان

وقد ألقى العلامة كرستيان محاضرة فى جمعية الشبان المسلمين يناير سنة ١٩٣٨ عن الشيخ طنطاوى استهلها بما يأتى :

إن أعظم فيلسوف فى مدرسة ساينس ديوجين ، المشهور بما خاطب به الإسكندر المقدونى الكبير ، وذلك أن الإسكندر قال له : ماذا تتمنى أن أعطيك؟ فأجابه لن أتمنى إلا أن تتزحزح من أمامى حتى يشع نور الشمس على برميلى ، وقد كان يرفع المصباح فى يده وهو يتفقد الطرقات ، ويقول : أين الانسان ؟ إن واحدا من عظماء فلاسفة المصريين المعاصرين قد فعل أعظم من هذا الفيلسوف اليونانى ، وقال بحق « أين الانسان » مسميا به كتابا نشره للسلام العام »

ثم أخذ يفصل فضل الشيخ طنطاوى ، وتعرض لإلقاء شعاع على هذا الكتاب « أين الانسان » أوضح مغزاه وما رسم فيه فى محاضرته .

هذا وقد وقعت فى يدى جريدة فتى النيل المؤرخة يوم الأحد ١٢ مارس سنة ١٩٣٩ - ٢١ المحرم سنة ١٣٥٨ .

وفيها مقال للأستاذ محمد حسن الأعظمى الهندى عضو جماعة الأخوة الإسلامية المكونة من جميع الأقطار الاسلامية - عن الشيخ طنطاوى جوهرى الذى انتخب رئيس لجنة المحاضرات لهذه الجماعة ، التى تضم أشخاصا ليسوا

مصريين بل نزحوا إلى الديار المصرية للعمل فى جماعتهم، لمجد الإســلام والمسلمين، وقد جاء فى مقال الأستاذ :

«لم تشتهر فى الشرق شخصية من المصريين كما اشتهر شيخنا العلامة الشيخ طنطاوى جوهرى . ومن يشك فى هذا فايدر فى أقطار الهند والفرس والصين والتركستان وأندونسيا والعرب وغيرها من الشرق، وسيجده إن شاء الله علما مرفوعا فيها . وإنى لست بمبالغ لو قلت : إنه كما أحسن إلى مصر لتعريفه إياها الشرقيين، لم تحسن مصر إليه فإنك تجد فى الشرق من عرف مصر بعد معرفة شيخنا .والشرقيون يعتقدون فيه أنه المصرى الوحيد الذى عرف الثقافة الدينية والحديثة أتم المعرفة . والرجل الذى ليس هكذا خطر على رقى المسلمين فى عصرنا هذا . فالناس لا يعتمدون على رجل دينى محض، ولا على رجل عصرى محض؛ لأن الأول يقود الناس إلى وادى الجمود، والثانى يجرهم إلى بحر الجحود .

ولعلكم تدهشون لو سمعتم أن التركستانيين لما استقلوا استقلالا تاما، وأقاموا جمهورية إسلامية برياسة مسلم «الحاج تياز» وابتدءوا فى إقامة المدارس والجامعات اتفقوا على أن يسموها باسم شيخنا طنطاوى جوهرى، وفعلا سموها حسب اتفاقهم جامعة طنطاوية ومدارس جوهرية وهكذا... وألف زعماؤهم وعلماؤهم كتبا فى لغتهم للتدريس فى هذه الجامعات والمدارس باسم شيخنا مثل «كتاب العقائد الجوهرية» وغيره؛ لأنه فى عقيدتهم حجة الشرق وفيلسوف الإسلام، وتصانيفه منتشرة فى الشرق، فهو نجم لامع يستضيئون به ويحترمونه، ولكنه مع الأسف الشديد مفقود فى إخواننا المصريين لأنه بين أيديهم، وكل شىء يستحسن بعد غيابه» .

وبعد ذلك ذكر لقاءه معه وعرضه عليه الانضمام إلى هذه الجماعة فرحب بالفكرة وانضم وأظهر نشاط الشباب، ثم ذكر طائفة من كتبه وبين أن كثيرا منها ترجم إلى أكثر من لغة شرقية، ثم عرض لتفسيره المسمى «جواهر تفسير القرآن» وقال عنه:

«وتفسيره الوحيد كاف لمعرفة هذا الشخص العظيم، فإنه فهم كتاب الله الذى أنزله على رسوله فى مدة ثلاث وعشرين سنة، محتويا كل العلوم والفنون والتعليمات العلمية والنظريات الجامعة. أحسن الفهم فكتب تفسيره موافقا بين النظريات الحديثة والدينية، فوفق كل التوفيق»

وقد أخذ بعض علماء الهند فى ترجمة التفسير إلى اللغة الأردية المنتشرة فى الهند، فأقبل عليه أهل الهند إقبالا عظيما.

مما ذكرت واقتبست يتبين للقارىء مقدار استحقاق الشيخ طنطاوى لجائزة نوبل للسلام. ومن التقاريظ التى قدمت يتبين أن أعظم كتاب أخرج للناس فى السلام العام هو كتاب «أين الإنسان» ولذلك حق للأستاذ أن يتقدم لجائزة نوبل للسلام، إذ الشرط الأساسى لها أن يأتى المرشح بعمل، أو يقوم ببحث فى السلم لم يسبق إليه، وقد حاز الكتاب السابق هذا الشرط وإليك نبذة عن جائزة نوبل للسلام:

جائزة نوبل للسلام:

لاتقبل الترشيحات لهذه الجائزة التى تمنح فى ١٠ ديسمبر من كل سنة إلا إذا قدمت للجنة نوبل بالبرلمان النروجى من شخص له حق الترشيح قبل أول فبراير المقدم على ذلك التاريخ.

والأشخاص الذين لهم حق الترشيح هم:

١ — الأعضاء الحاليون والسابقون للجنة البرلمان النروجى لجائزة نوبل، والمستشارون الملحقون بمعهد نوبل النروجى.

٢ — أعضاء الهيئات التشريعية وأعضاء الحكومات من مختلف الدول، وكذلك أعضاء الاتحاد البرلمانى الدولى.

٣ — أعضاء محكمة التحكيم الدائمة فى لاهاى.

٤ — أعضاء مكتب مجلس السلم الدولى.

٥ ــ أعضاء معهد القانون الدولى والمشتركون فيه .

٦ ــ أساتذة الحقوق والعلوم السياسية والتاريخ والفلسفة فى الجامعات .

٧ ــ الأشخاص الذين نالوا جائزة نوبل فيما قبل.

وطبقا لأحكام المادة الثامنة من القانون الأساسى لهيئة نوبل ، يجب أن يكون الطلب مسببا، وأن يشفع بالمؤلفات والمستندات الأخرى المؤيدة ، وتقضى المادة الثالثة من القانون بأنه لا يقبل أى مؤلف فى المباراة ما لم يسبق نشره فى الصحف .

هذا وقد رشح أستاذَنا الجليل لهذه الجائزة حضرة النائب المحترم عبدالحميد بك سعيد ، وحضرة الأستاذ مصطفى بك مشرفة عميد كلية العلوم .

وإنا لنرجو له التوفيق والسداد بمن الله ومشيئته ! !

محمود الطنيخى

المدرس بالخديوية

كتاب حياة الرافعي

تأليف الأستاذ محمد سعيد العريان

عرفت الأستاذ سعيد العريان من كتاب القصة القصيرة ، الذين أجادوا فنها ، وبرعوا فيه ، فأسدوا خدمة جليلة للغة العربية ؛ إذ جعلوها محببة لدى أبنائنا وبناتنا ، وهم قوام الجيل الناشىء ، وعدة المستقبل .

وعرفته مدرسا خبيرا بأساليب الحوار ، ماهرا فى عرض مادته ، وفى اختيار ما يناسب منها عقول الناشئين والناشئات .

وعرفته من كتاب المقالات فى النقد الأدبى ، الذين يدينون بمذهب ، ويستمسكون به ، ويناضلون عنه ، ولو نالهم فى سبيله ما نالهم من أذى .

وسمعته محاضرا ، واضح الأداء ، قوى النبر ، يأسر سامعيه ، ويخلبهم ببيانه الساحر ، ولا يتركهم إلا حيث يريد .

وهو فى كتابه « حياة الرافعى » يكشف لنا عن ناحية جديدة فيه ، وتلك هى براعته فى كتابة السير وتراجم الرجال ، فلقد قرأت كتابه من أوله إلى آخره على غير ما ألفت فى قراءة الكتب ، وانتهيت منه منذ عهد قريب ، وإنى لأجد فى نفسى حنينا إلى أن تعود إلى قراءته ، فتستمتع بذلك الأسلوب البارع والفن الرفيع من فنون القول .

اتصل الأستاذ سعيد بالرافعى ، وتأكدت الصلة ، فكان نجيّه وكاتم سره ، وأخلص كل واحد منهما لصاحبه ، وارتفعت الكلفة ، وقدر سعيد أدب الرافعى قدره ، واطمأن الرافعى إلى سعيد اطمئنان الصديق إلى الصديق ، وكشف له عن دخيلة نفسه ، فرأى خيرها وشرها ، وقوتها وضعفها ، وما اشتملت عليه من حب وبغض ونوازع مختلفة .

وكان سعيد شابا يقظا بعيد النظر ، عنى بدراسة الرافعى دراسة شاملة ، وكأنه قد تنبأ بأن القدر يعده لأن يقوم بهذه المهمة العظيمة ، فكتب حياة الرافعى على نحو لم يألفه الناس ، فلم يصوره ملكا طاهرا ، هبط من السماء إلى الأرض ، ولم يجعله مثلا أعلى ، جمع كل خلال الخير ، وإنما صوره رجلا يدب على هذه الأرض : يحنو على الضعيف ، ويهيم بالجمال ، ويحب الفكاهة

ومجلس الأنس ، ويرى فى كل شىء من هذا الوجود موضوعا يتناوله بفكره وقلبه ، ولم تمنعه صداقته له أن يقول ما يعرف عنه من عيب ، فكان بذلك وفيا للحق ، أمينا على التاريخ .

قرأت فصولا من أدب الرافعى ، فكانت تثقل على نفسى فلا أستسيغها ، ولا أرى فى قراءتها متعة ، ولكن كتاب سعيد خلق فى رغبة قوية فى أن أقرأ « رسائل الأحزان » و « حديث القمر » و « أوراق الورد » وسواها مما أحدث الرافعى . لأنه فسر نشوءها ، وكشف عن باعثها ، وأنار السبيل فدراستها ، وليس يخدم حى ميتا بأكثر مما خدم سعيد (المرحوم الرافعى) لقد حبب الناس فى فنه حين فسره ، وبعثه حيا نابضا ، فيه كثير من ألوان الجمال.

وأخذ سعيد على الشعراء والكتاب أنهم لم يجتمعوا فى حفل حاشد ، ليقوموا ببعض ما وجب للرافعى من حق على أدباء الجيل الحاضر ، ولكن سعيدا - وهو فرد - أدى هذا الواجب بأحسن الأداء ، فكان بذلك أمة وحده .

على أنى مع هذا أرجو من الأستاذ سعيد أن يفسح صدره كما عودنى ، ليسمع منى بعض ما أخذت عليه ، فقد روى فى الكتاب وقائع لا أرى المنطق يقبلها وليس عندى شك فى أن الأستاذ أعرف الناس بهذا ، ولذلك كان يعتذر بأنه راوية ، ونحن نجله أن يرسل الكلام دون أن يحتكم فيه إلى عقله .

وهناك شىء آخر أخذته عليه هو مبالغته فى تقدير أدب الرافعى ومنزلته من أدب الجيل الحاضر ، فإن انصراف المتأدبين عنه دليل على أنهم لا يجدون فيه اللون الذى ينشدونه ، ولعل جهل الرافعى بالآداب الأجنبية واتجاهاتها فى العصر الحاضر ، وما تعالجه من شئون ، وتلك العاهة التى ابتلاه الله بها منذ الصغر ، وما كان يشعر به من كبر وغرور ، وأداءه عملا واحدا فى مكان واحد طول أيام حياته — كل أولئك جعلته فى شبه عزلة ، فكان أدبه أشبه بفلسفة أفلاطون أدبا خياليا ضعيف الصلة بالحياة الواسعة الصاخبة المضطربة

ولا يسعنى مع هذا إلا أن أقدم تهنئى للأستاذ سعيد على كتابه العظيم ، وأرجوه أن يمتعنا بمثله فى القريب العاجل .

وفى الختام أنادى من أعماق القلب مع الأستاذ سعيد: «يرحم الله الرافعى!! يرحم الله الرافعي ! ! »

محمد علي مصطفى

فهرس العـــدد الرابع

من صحيفة دار العلوم